سور الكتب

هناء متولي

يوم آخر للقتل

رواية

الدار المصرية اللبنانية

متولي، هناء.
يوم آخر للقتل: رواية / هناء متولي. – ط1.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.
144 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 – 450 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 30580 / 2023

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2024م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد السعيد

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

هناء متولي

يوم آخر للقتل

رواية

«النساء لا يُجِدْنَ إخفاءَ الفضائح»

الدار المصرية اللبنانية

البداية

أنّاتٌ خفيضةٌ وآسرة، لا تنقطع، تملك عقول نساء قرية كوم الديبة بأكملها، لا تفرّق بين عجوزٍ أو رضيعة، تسير في كلّ اتجاه، حتّى كأنّهنّ يرينها بقدر ما يسمعنها، وبالرغم من ذلك فالصوت لا يصل إلى آذان الرجال أبدًا، كأنّ موجاته تنكسر على حواف مسامعهم.

ذلك الصوت الليليّ الغامضُ الذي يتكرر ليلة بعد ليلة في كلّ شهر، تمامًا بعد منتصف الليل، يُهيّج أعصابهن، وينفذ إلى أرواحهن، يملكهن، ويسلبهن أية مقاومة، يفصلُ الروح عن الجسد؛ فتنعزل النساء عن الحياة، ويتحولن إلى مسوخٍ شاحبة، فيحدث أن تُبعد الأم رضيعها عن ثديها، وتركلُ الزوجةُ زوجَها وإن كان يضاجعها، الأطفال يكفُّون عن النوم واللهو، وحتى تلك المرأة التي وُلِدَتْ صمّاء بكماء، فإنّها تستجيب إلى الصوت بالدرجة نفسها.

تنسابُ نساء القرية من أسرّتهن كالماء في لحظةٍ واحدة، يصعدن إلى أسطح المنازل، بعد أن ارتدين ثيابًا سوداء، حاسراتِ الرؤوس، يصعدن إلى الأعلى حيثُ لا حجاب بينهن وبين السماء، يستنشقن هواءً لم يختلط بعدُ بأنفاس الرجال، يخرجنه زفيرًا غاضبًا، يمزّقن جلابيبهن حتّى تصير صدورهن حرّة من دون خوف، ويبدأن في الصراخ والعويل الذي ينهش القلوب، ويُفزع كلّ الموجودات، الطيور والحيوانات تهجرُ أعشاشها ومضاجعها الدافئة وتشاركهن صراخًا لا يفتر حتى طلوع الفجر، بينما الرجال يغطون في نومٍ ثقيلٍ حتى الصباح.

رائحةُ البيوتِ

قطراتٌ ثقيلةٌ تنزلقُ على سترتِها الجلديةِ، حذاؤها يزدادُ ثقلًا، تحاذرُ ألّا تسقطَ، لا تعرفُ من أينَ واتتها فكرةُ أنّ المطرَ يمحو الخطايا، رأتهُ خلاصَها الأخيرَ؛ فتشبّثت به، تتمنّى لو تطوفُ على أماكنِ ذنوبِها، تتحمّمُ بالمطرِ، تتطيّبُ بالطّينِ، تتوسّلُ للسماءِ ألّا تـوقفَ دمـعَها قبـلَ أن تتطهّرَ.

كعبُ حذائها يغوصُ في الطين، كوم الديبة غارقة في الظلمة والبرودة بالرغم من أن الساعة لم تتعدّ العاشرة مساءً، الشوارع تغيّرت، صارت أكثر ضيقًا وغرابة، البنايات الطويلة، المحال المتراصّة، مساحات الخضرة التي تآكلَت، القرية صارت كأنّها مدينةٌ صغيرة، حتّى الألفة التي كانت تستقبل الغرباء استحالَت إلى أشباحٍ مظلمةٍ تتخطّف القلب.

ودّت لو قابلت وجهًا مألوفًا؛ لتتأكد منه أنّ كل شيء لا يزال على حاله، وأنها في الاتجاه الصحيح إلى منزل عائلتها. لمحت إحداهنّ تقف قريبًا من المعصرةِ القديمة، لا بدّ وأنّها الحاجة مسعودة بقامتها الضعيفة، وعباءتها السوداء، لا تزال تبيع الأيس كريم وعصير القصب كآخر مرة رأتها فيها منذ أعوام بعيدة.

- طنط، أتذكرينني؟

الحاجة مسعودة صارت تعاني من ضعف البصر في السنوات الأخيرة، لكنّها راحت تتفرّس وجهها في محاولاتٍ حثيثةٍ للتعرّف إلى ملامحها.. غيرَ أنّ الظلامَ لم يترك لها فرصةً كافية.

- أنا سارة، سارة شعبان.. ابنة تماضر.

تبتسمُ مسعودة وتحتضنها في ودٍّ، وتتشمّمُها، وتتعلّقُ برقبتِها كأنّها وجدَت قطعةً من الذكريات الغائبة. كانت مسعودة فيما مضى صديقةً مقرّبةً من تماضر والدة سارة، وكانت مستودع أسرارها، وعندما ظهرت علامات الحمل عليها؛ أخبرتها مسعودة أنها حاملٌ في طفلةٍ، ولم تكن مسعودة مجرد بائعة عصير ومرطبات فقط، بل كانت على دراية كافية بشئون النساء كمهاراتٍ قديمةٍ اكتسبتها من أمّها القابلة، حتّى إنها كانت أول من استقبل سارة في هذه الحياة.

دار بينهما حديثٌ خاطفٌ، ثمّ نادت مسعودة على شاب؛ ليحضر لها توك توك يوصلها إلى البيت؛ فهي لا تحبّذ لها السير على القدمين معللة ذلك بأن القرية قد تغيرت كثيرًا في السنوات الأخيرة؛ فالليل صار مخيفًا للغرباء والأبناء العائدين بعد طولِ غياب، وقبل أن تستفسرَ منها سارة لتعرفَ معنى تلكَ الجُملة كان الشاب قد أحضر التوك توك؛ فاحتضنتها مسعودة مرةً أخرى، ولم تتركها حتّى وعدتها بأن تراها ثانيةً.

نزلت سارة بعد أن أعطَت سائق التوك توك خمسة جنيهات، أخذها من دون أن يلتفت إليها، ثلاث خطوات هي المسافة بين منزل عائلتها وناصية الحارة التي نزلت عندها، رائحة البيوت لا تخطئها أنوفُ أصحابها مهما باعد بينهما الزمن، أوقفتها رعشاتُ الحنين أمام منزلها، ثبتت للحظات ولم تتحرك، ربما أرادت أن تُعبّئ روحها الضائعة بذكرياتٍ مُتخمة بعبق الماضي، بسحره الحار، وبريقه المشتعل الذي تغلب على الظلمة والصقيع من حولها.

وجهت كشاف هاتفها النقال ناحية السلم، وراحت تصعد درجاته الضيقة بهدوءٍ وهي تتلفّتُ حولها كأنّها لم تصدق بعدُ أنها -أخيرًا، ورغم كل شيء- صارت في بيت والديها، ذلك البيت الذي لم تدخله والدتها وهي عروس، بل دخلوه معًا لأول مرة كأسرةٍ بسيطةٍ مكونة من أب وأم وابنان.

تذكّرت الحكاية الأثيرة لأمها، والتي روتها لأكثر من ألف مرة عن عروسٍ تزوجت في غرفةٍ صغيرةٍ في المنزل الكبير لعائلة زوجها، والحقُّ، أنّه كان كبيرًا من حيث المساحة ومن حيث قاطنيه أيضًا، هناك، حيث الغربة شعورٌ دائمٌ لا ينقطع.

ولما كانت تسأل أمّها عن سبب قبولها لهذا الوضع؛ لم تكن تجد عندها مُبرّرًا منطقيًا؛ فرغم أن والديها أغرما ببعضيهما من المرة الأولى؛ فإن الغرام وحده لم يكن السبب، لقد قاربت والدتها وقتئذ على الثلاثين، وودّت أن تهرب من لقب عانس، وتتخلص من غمزات النساء وحديثهن الخفيّ داخل العائلة وخارجها.

الصدأ الذي يكسو مفتاحها لم يعاقبها على الغياب الطويل، أضاءت كلّ المصابيح تقريبًا، وحمدت الله في سرّها مُمتنّةً لخالتها التي لم تهمل صيانة المنزل، وكانت حريصةً على دفع فواتير المياه والكهرباء والهاتف، المنزل لا يزالُ مريحًا وطيبًا رغم فضائه المعبأ برائحة الوحدة والحزن.

فوق السجادة التي تتوسّط البهو تمددت، نظراتها شاردة في فضاء البيت، وقلبها مثقلٌ بالأحداث التي أرهقته منذ غادرت القرية، وسرعان ما سرى في دمها شعورٌ بطيء بالراحة كمخدرٍ لذيذٍ،

وراحت في غفوةٍ خاطفة، ثمّ حملت جسدها وتسلّلت إلى غرفة والديها، سحبت الفرش والأغطية وقذفتها بعيدًا، وسقطت بحملها على السرير تداعب نومًا فرّ من عينيها لسنوات.

***

النوم كان طيّعًا تلك الليلة، لكن شيئًا تسرّب إلى روحها جعلها تستيقظ فزعةً على أثر صرخات عالية تأتيها من كل جانبٍ، ونداءات يختلط فيها البكاء بالترقُّب. دفعت جسدها بعيدًا عن الفراش، وانطلقت تجري نحو مصدر الصرخات خارج المنزل حتى من دون أن تضع على رأسها طرحة أو ترتدي عباءةً سَوْدَاءَ فوق ملابس البيت كحال النساء في الأرياف، كانت تجري من دون أن تعرفَ سببًا لذلك، فقط كانت تجري، وتتعثّر، وتجري..

ساقها الصراخ حتى الترعة الممتدة بطول القرية، كان حشدٌ من الناس مجتمعين، يعبئون الفراغ صخبًا وفوضى، حرّكت عينيها بين الوجوه الغريبة التي لا تنعدم فيها الألفة، واقتربت من الجمع، وفوق الكوبري القديم راحت تتحسّس الخطوات بين الزحام لتشاهد غوّاصين يصعدان من الترعة وقد انتشلا جثّة غريقة.

الجثة لفتاةٍ صغيرة، بطنها منتفخٌ، وشعرها يخفي ملامحها، وبمجرد وضعها على ضِفة الترعة، سَتَرَتْهَا بعض النسوة بملاءات ظهرت فجأة، وطلب شيخ البلد من الجميع الانصراف حتى تصل الشرطة، انصرفَت سارة وهي تسمع همهمات تتناهى إلى مسامعها مفادها أن جُثّة تلك الفتاة لا تنتمي إلى قريتهم.

***

الزينة لا تفلحُ في محو الحزن أو طمس آثار الغياب، شعور عميق بالغربةِ انتاب سارة وهي في بيت جديها الكبير الذي كانوا يسمونه بيت العائلة، الآن صار لعمها عطية وأسرته بعد أن هاجر عمها الأصغر عقب ترضيةٍ ماليةٍ قليلة، وتنازل والدها عن نصيبه في الإرث، كثيرًا ما سألت نفسها عن سبب ذلك التنازل، وكعادتها لا تجد إجابات.

الحوائط على حالها، رائحة البيت المُعتّقة، أطياف الماضي، أنفاس الراحلين، الحنين الذي لا يفارق الروح، الذكريات المتناثرة في الأركان، كلها أشياء تخبر عن حكايات لا تنتهي بموت أصحابها.

الريفيون لا يكفُّون عن الكلام أثناء الطعام، وبالطبع فإن حادث غريقة الأمس كان لا بد أن يفسح لنفسه الصدارة أثناء مأدبة الغداء التي أعدّها لها عمُّها عطية، كانت سارة تستمع إلى حديثه هو وزوجته من دون أن تنطق كلمةً واحدة، الحوائط تنشع بحكاية أمها التي روتها لألف مرةٍ سابقة، وبحكاية حبها لشعبان الذي كان يأكل نصف بطن ليترك من طعامه ما يسهم في سد رمق أخويه الصغيرين، وكيف كان يساعد والده في حرث القراريط السبعة الغُفي حتى تشقق قفاه من عرقه المالح، كانت تنظر إلى زوجة عمِّها بعينٍ بينما تتسلق بالأخرى الحوائط والأركان البعيدة بحذر الغُرباء. الحفاوة التي استقبلَت بها وصنوف الطعام المُبالغ في إعدادها أشعراها بالغربة، محض زائرة عليهم إكرامها وليست فردًا من العائلة، لم يجذب انتباهها إلى مائدة الطعام ثانية إلا حينما باغتتها زوجةُ عمها عندما سألتها عن زوجها وولدها، وبقليلٍ من الارتباك ادّعت سارة أنها تركتهما في ليبيا لترتّب لفكرة رجوعهم النهائي إلى مصر، وتنظر إلى

الفراغ في محاولةٍ لإلهاء نفسها بتفاصيل أخرى، لم ينقذها من ذلك الاستجواب سوى طرقات متحفِّظة، كان رجلان من أهل القرية أرادا عمّها، همسا في أذنه؛ فانطلق معهما من فوره، تبعته سارة هربًا من الأسئلة الفضولية لزوجته، ركبت السيارة إلى جوار عمّها الذي أخبرها أنهم ذاهبون إلى قرية عش العقاب، توقفوا بجوار جامعها الكبير، حيث كان قريبهم أبوسريع - الذي انتقل إلى القرية منذ فترةٍ طويلةٍ، تزوّج من بناتها، ويعمل على جرار زراعي - مربوطًا عاري الجسد في عمود الإنارة المقابل للجامع، ظلت سارة على مقعدها في سيارة عمها كما أمرها، لكن أصوات الرجال في الجلسة العرفية كانت تذهب إلى أطراف القرية، عرفت من حديثهم أن بعض الرجال شاهدوا قريبها واقفًا خلف محول الكهرباء يعرض قضيبه للنساء والفتيات المنحدرات على الطريق، وأن الرجال انتهوا في مجلسهم العرفي إلى تغريمه خمسة قراريط من أرضه، وطرده من القرية بأكملها، ولم تحزن لسماعها الحكم؛ إذ إنها تراه عقابًا عادلًا لمتحرشٍ مريضٍ مثله، وردعًا لمن يفكر في تكرار فعله المشين، وفي الطريق أبدت استغرابها مما حدث؛ إذ كيف لرجلٍ يعري قضيبه، هكذا، من دون خوفٍ من العقاب، وانهالت على عمّها بأسئلةٍ كثيرةٍ، كان واجمًا في البداية، لكنه وجد في الحديث معها تنفيسًا وراحةً، أخبرها أن الشّائع عن عش العقاب أنها كانت خرابًا وأرضًا مهجورةً فيما مضى، ويُقال إنها كانت إحدى ممالك الجنّ، وبعد أن طاولها العمران اشتهرت بأعمال السحر وتسخير الجان من أجل البحث والتنقيب عن الآثار، كثير من أهلها تحوّل حالهم من الرقة إلى الغنى في يومٍ وليلة، وانتشرت البيوت الإسمنتية في غضون أعوام قليلة، وأن عددًا من نساء القرية وبناتها

عشيقات لملوك الجن وعشائرهم، منهن مَن تختفي من بيتها أسبوعًا كاملًا، وعند ظهورها تروي كيف أن جنيًا خطفها ونزل بها إلى باطن الأرض، وضاجعها حتى إنها كانت تصرخ من الألم، ويبتسم عطية: «أو من المتعة»، وزوجها الغشيم يصر على مضاجعتها في الليلة ذاتها.. «لكنّها لا تصرخ معه»، ويبتسم ابتسامةً أعرض، حتى بنات البنوت يأتيهن الجني على هيئة رجل وسيم أو على هيئة خطيبها أو حبيبها، ويلعب معها وهي في حال بين الصحو والنوم، ولكن أغلبهن لا يبحن بمثل تلك الأمور، وهناك غير رجل من رجال القرية يدعون أنهم على علاقاتٍ مماثلةٍ بنساء الجن، كما أنّ نساء القرية مربوطات، لا يحملنَ إلا بالتوشل إلى شيخ اسمه عبد القادر وهو بمثابة ابن عم لمسعودة، يُقال إنه مَن ربطهنّ عن الإنجاب؛ حتى يسترزق، وهو على علاقةٍ وثيقةٍ بملوك الجان كما هو شائع. ولم ينته عطية من أحاديثه العجيبة حتى توقف بسيارته أمام بيت سارة، وطلب منها أن تحضر بعضًا من ملابسها وتعود معه لتنام في بيته، ارتبكت وحاولت الاعتذار كثيرًا، لكنه كان عنيدًا ورافضًا أن تنام بمفردها في البيت. يكفى الليلة الماضية وقد مرّت بسلام، ولم ينتهِ الجدال إلا على صوت هاتفها النقال حيث فاجأتها إنجي ابنة خالتها وأخبرتها أنها في الطريق إليها لتبيت معها، لتحمد الله على ذلك الاتصال الذي خلّصها من ورطةٍ كبيرة.

***

تضربُ الريح النوافذ، زخّات المطر لا تتوقف، برك متفرقةٌ حوّلت الشوارع الترابية للقرية إلى مخاضة تئد الحركة تقريبًا، المطر كان مستحيلًا في تلك الليلة لدرجة أن منسوب ماء الترعة ارتفع حتى

أوشك أن يفيض على جانبيها.

البرد ينخر في جسد سارة، حرارتها مرتفعة، تتنفس بمشقةٍ، وتسعلُ بقوة، تجرُّ خطواتها كأنها ترزخ تحت معطفها الثقيل، الظلام الذي تخشاه يفرد جناحيه على فضاء القرية، حتى البرق الخاطف يزيده سوادًا، لكنّها مضطّرة للتغلب على مخاوفها مؤقتًا والخروج في تلك الأجواء، لا ترى أمامها وهي تقفز بين برك المياه وأطنان الوحل سوى صورة إنجي بعد أن دخلت في نوبة تشنجات عنيفة، كانت تعضُّ لسانها وتنزلُ من فمها رغوةٌ متدفقةٌ كأنّها تصعق بالكهرباء، وما أن ذهبت تلك النوبة حتى هرعت سارة لإحضار طبيب، ولم تشأ أن تخبر خالتها فورًا بما حدث لابنتها إنجي؛ لأنها شعرت أنّ سرًّا كبيرًا تُخفيه عنهم فضلًا عن بعض الهالات السوداء التي تتحلق حول عينيها، فقط تركتها مُمدّدة على الأرض واندفعت للخارج.

لم تجد أمامها سوى اللجوء إلى زميل دراستها وطفولتها الدكتور أحمد، آملةً أن تجده في بيت عائلته الذي يبعد بمقدار ناصيتين من منزلها، والناصيتان في تلك الأجواء كأنهما قارتان، وبين الناصيتين يوجد ممرّ ضيقٌ تقف على أوله امرأة لا تتحرك كأنها تجمّدت حين شاهدت سارة، الضّوء الشحيح المنبعث من كشاف سارة القديم لم يكن كافيًا لكشف هُوية تلك المرأة إلا عن قُربٍ، وسارة لم تجد بُدًّا من الاقتراب منها برغم مخاوفها المتصاعدة؛ إذ لا سبيل للوصول إلى بيت الدكتور أحمد إلا بالمرور من أمام الممر الضيق، وبينما لا يفصلها عنها سوى متر أو أقل وجهت الكشاف ناحية وجهها وراحت تشهق بقوة: «أهذه أنتِ يا أسما؟».

كانت تلك المرأة الفارعة ذات الكتفين العريضتين أسما عبد الله صديقة سارة في الصغر، لكن ملامحها تغيّرت بشكلٍ مخيف، بدت شاحبة حتى كأنّ عروق رقبتها نافرة بغرابة، لكنها لا تزالُ تحتفظُ بعينين زرقاوين بهما مسحة باقية من فتنةٍ قديمة، نظرت إلى سارة بعينٍ شاردةٍ، ومضت بخطواتٍ سريعةٍ نحو الطريق المؤدي إلى الترعة، التفتت فجأة لسارة.. نظرت إليها بشكلٍ خاطفٍ ثم استأنفت طريقها وسط اندهاش وخوف سارة المتزايدين، وما أن وصلت إلى بيت الدكتور أحمد لم تتوقف عن قرع الباب الحديدي حتى سمعت وقع قدمين تسرعان من الداخل.

كانت إنجي ملقاةً على أرضية الحمام لما عادت سارة بصحبة الدكتور أحمد، رائحة القيء تعبّئ المكان، بعض المحاليل -التي أحضرها معه على سبيل الاحتياط- كانت كافيةً لتمر تلك الليلة العصيبة، وبجوار أبخرة الشاي الذي أعدّته سارة تناولت من يده خافضًا للحرارة وراحت تشكره على وقوفه بجانبها، أخبرته أيضًا أنها شاهدت صديقة طفولتيهما أسما بالقرب من منزله، وأنها كانت غريبة الأطوار، لم تشأ حتى أن تردّ السلام، وانطلقت نحو الترعة في تلك الساعة المتأخرة وفي تلك الأجواء القاسية، لكن أحمد لم يقدم لها تفسيرًا مناسبًا، كل ما أخبرها به أن أسما ترددت عليه في الوحدة الصحية عدة مرات، وفي المرة الأخيرة قبل أسبوعين كانت متوترة وتبحث عن طريقة لإنجاب طفل ذكر، لكنه عاد وطمأنها أنها ربما لم تكن أسما؛ فالجميع يلتبس عليه الأمر في الظلام، وقبل أن ينصرف أخبرها أن ابنة خالتها إنجي ربما كانت تتعاطى بعض أنواع المخدرات الجديدة؛ فقد مرت عليه بعض الحالات المشابهة في

الآونة الأخيرة.

في الصباح، أرسلت الشمس أشعتها؛ لتعطي إحساسًا كاذبًا بالدفء، لم تنم سارة تقريبًا، عينا أسما لم تفارقاها طوال الليل، كما أن فكرة إدمان إنجي المخدرات ستكون كارثة عائلية تتزامن مع قدومها، أفاقت إنجي وكانت جائعةً جدًا، وفي الشرفة وهما تتناولان الإفطار اعترفت لسارة بتعاطيها بعض الأدوية المُخدِّرة من دون أن تسألها، وأضافت أن صديقاتها هن مَن علّمنها ذلك تحت مسمّى (الروشنة)، وبعد ثرثرةٍ قليلةٍ تعهدت بالتوقف والعلاج شريطة ألا يعلم أحد شيئًا.

قبيل العصر، هاجم الصقيع البيوت ثانية، وسقط حزنٌ مفاجئ في قلب سارة؛ فقامت تتفقد مكتبتها القديمة، وأمسكت كتابًا عن الفلسفة حاولت تقليب صفحاته الصفراء الملتصقة وهي تجلس في الشرفة، لكن أصوات صراخ وجلبة تناهت إلى مسامعها، دفعها الفضول مرة أخرى إلى الترعة؛ لتجد حلقة من النسوة الباكيات حول جثّةٍ جديدةٍ انتشلها بعض الصيّادين من الترعة، وبجوارها امرأة من أهل القرية تلطم على صدرها بعد أن شقّت عباءتها إلى نصفين.

بالطبع كُل شيء حول الجُثّة كان مختلفًا هذه المرة، فالغريقة امرأةٌ معروفةٌ من نساء القرية، في عِقدِها الخامس تعملُ في الترحيلات.

عمّال التراحيل؟! ما زالت مهنةً للناس هُنا!

***

كان اندهاش سارة حقيقيًا، لم تستوعب أنّ النساء يعملن بعد في الترحيلات؛ يتنقّلن بين الأراضي الزراعية في مُختلف القرى البعيدة

والقريبة، يجمعن المحاصيلَ ويبذُرن البُذور، بعد كلِّ هذا التطور التكنولوجي في الآلات والمُعدّات الصناعية المُستخدمة في الزراعة.

لتزِدْ عليها الخالة، بأنّ الآلات ملعونةٌ تُضيِّع نصف المحصول وتتركُه يبُور في الغيطان، لكنّ الأنفارَ - وبخاصّة النساء - لا يتركون وراءهم جِذرًا واحدًا من دُون قلع.

فالغريقة كانت بمثابة مُقاول أنفار تحت يديها أكثر من أربعين نفَرًا معظمهم من النساء، اسمها معروفٌ بين تُجّار الخضراوات، يقصدُها أحدُهم وقد اشترى محصول فدادين من الخُضراوات المزرُوعة، يتفقُ معها على عددِ الأنفار والأُجرة، كل يوم اثنين من كل أسبوع، يعطيها «مبلغ قبض الأنفار» بالكامل، ثم توزِّعُهُ عليهم، كلًا حسب الأيام التي اشتغل فيها، ليجد ما ينفقه في سوق الثلاثاء، ويشتري حاجات البيت الأسبوعية مقابل مبلغ جُنَيهين على كل نفر غير يوميتها. لذلك تقومَ هي بالتربيط على الأنفار قبلها بيومٍ، وتتصل بهم من هاتفها المحمُول الصغير كل يوم قُبيل الفجر كي لا تروحَ عليهم نومة حتى طلوع الشمس، يهرولون إلى الكوبري فجرًا ويتم تحميلُهم على عربات ربع نقل، تتفقُ دائمًا على يوميتين في اليوم، الأولى من بعد الفجر حتى الحادية عشرة، والأخرى من الواحدة ظهرًا حتى السادسة مساءً، وإذا كانت القرى التي يعملون بها قريبة من حيث المسافة، يعودون إلى كوم الديبة ظُهرًا لتنصرفَ النساء إلى شئون دورها وأولادها وينعم الرجال بالنوم والطعام، ثم يعاودون التجمُّع ثانيةً والعودة إلي فدادين الخُضراوات، أما إذا كانت القرى بعيدةً، فيكتفون بالطعام والنوم تحت ظلال الأشجار، هكذا طوال العام صيفًا وشتاءً عدا شهر رمضان فيكتفون بيوميةٍ واحدةٍ حتى الظهر.

والرجل يحصلُ على مائة وخمسين جُنيهًا في اليومية الواحدة، بينما تحصلُ المرأة على سبعين جنيهًا فقط، وهذا الفارق يُبرّر بأنّ مَهمّة النساء تقليعُ جُذُور الخضراوات من الأرض وتنظيفها وتركها على المصاطب، والقيراط يتم تقسيمُه إلى عدّة مصاطب، بينما مَهمّة الرجال تجميع المحصول وتعبئته في شكائر وحمله ورفعه على أسطح عربات النقل الضخمة، لكن الحقيقة التي عرفتها سارة أنّ النساء يساعدن الرجال في حمل الشكائر والصعود بها إلى العربات، فأغلب الرجال هم من العائلة، إما زوج أو ابن أو أخ أو حتى جار، وأيضا لتوفير الوقت واستغلاله في الراحة.

تسمعُ سارة أيضًا عن وضع نساء الترحيلات القاسي وخروجهن فجرًا تحت صفعات البرد، متلحفّات أغطيةً ثقيلةً فوق عباءاتهن، وتحمُلهن غليان الشمس صيفًا، محميات تحت قُبّعات للرأس مصنُوعة من القشّ فوق أحجبتهن الفاتحة.

***

في الوقت الذي تتزيّن فيه نساءٌ وفتياتٌ من القرية بملابس مستوردة من الخارج عن طريق تطبيق shein وأدوات تجميل مُتنوّعة ويملكن أغلى الهواتف النقّالة، وما زال بينهن نساء يقضين يومهن بالكامل تقريبًا، لينزعن الدُود عن الورقات الخضراء، ويجمعن الجزَر والخيار في الأجولة، ليتحصّلن على أقلّ من السبعين جنيهًا، وقرابة الكيلو جرام من الخضراوات والفاكهة.

ثم يرجعن إلى بيوتهن يكملن أداء دور الأم والزوجة، من دون مساعدةٍ حقيقيةٍ أو حتى تقدير.

ورجالهن يعتمدون على الجنيهات التي يصرفن بها على البيت، والأبناء في قرارة أنفسهم يشعرون بالنفور من عمل أمهاتهم، لكن لا أحدَ يملك حلًا.

الغريب أنّ الغريقةَ لديها ثلاثة أبناء؛ ابنتها الكُبرى تحضّر الماجستير في الحقوق وتعمل في مكتب محامٍ بمدينة بلقاس، وابنها يعمل سائقًا على جرّار زراعي، والابنة الصُغرى طالبة في الثانوية العامة شهيرة بفيديوهات التيك توك، وقد أجبرت والدتها على الظهور معها في أكثر من مرة عبر الفيديوهات، لتستغلّها الابنة في جمع عددٍ أكبر من التفاعلات، على اعتبار أنها بالرغم من بساطة الأم لكنّ الابنة فخورٌ بها.

أما زوجها فقد توفّي من أعوامٍ عديدة، ورفض أشقاؤها أن يمنحوها ميراثها الضئيل بحجّة أنّ والدتها ما زالت حيّة، وأن النساء لا يرثن حقوقًا في بيتِ العائلة ولا الأرض الزراعية، لذلك اعتمدت على نفسها وعملت نفرًا من أنفار الترحيلات حتى وصلت إلى مقاول أنفار تربّي أولادها من دون أن تمدّ يدها إلى قريبٍ أو غريب.

لم تصمت ابنتها المحامية عن الحادث، وحرّكت المركز ببلاغاتها الكثيرة وفاكسات إلى المديرية، واستمرت التحقيقات لأسبوع وأكثر، وشغل الجميع، داخل القرية وخارجها، فالغريقة امرأةٌ واسعةُ العلاقات، لكن من دون الوصول إلى نتيجة، ليتم حفظ القضية إداريًا.

كوابيس العصاري

تجري.. تخذلها قدماها؛ فتسقط..

تسمع زمجرة الذئاب خلفها.. تيأس من الجري.. قلبها يكاد يتوقف.. الأرض صارت لزجةً.. تحبو.. تنزلق.. تتمدّد على ظهرها في استسلامٍ تام وتدفن وجهها في كفّيها.. بينما تصعد فوق جسدها الذئاب..

تفتحُ سمية عينيها، تستعيذُ بالله من هذا الكابوس اللعين، لقد كان أقرب إلى الحقيقة، لم تكُن تصدّق أمّها عندما كانت تقول لها إنّ نوم العصاري بوابة للوخم والكوابيس. تغسلُ وجهها، ترتدي ملابس الخروج وتلفُّ حجابها بعنايةٍ وتخرُج لمقابلة صديقتها زينب، لتذهبا إلى مدينة شربين حيث دروسهما الخصوصية، والمدينة تبعد عن قريتهما مسافة ربع الساعة بالسيارة. في الميكروباص تتهامسان وتضحكان بشكلٍ مكتومٍ كعادة الفتيات الريفيات، يتوقف الميكروباص أمام سنتر الدروس؛ فتصعد زينب، بينما تمشي سمية حتى تصل إلى ناصية الشارع حيث يقف توك توك بستائر جلدية مُسدَلة، بحيثُ يكادُ لا يرى المارة الجالس في الخلف، بسرعةٍ خاطفةٍ ومن دون أن تلتفت تصعد سمية إلى التوك توك الذي انطلق مسرعًا نحو طريق الغاز المعزُول عن مدينة شربين، كان صديقها محمود ينتظرها بالمقعد الخلفي للتوك توك الذي يقودُه أحد زملائه، وخلف المصنع المهجور يهبط السائق ويذهب بعيدًا يدخن سيجارة الحشيش التي أحضرها له محمود على سبيل المكافأة، يد محمود لا تترك الوقت يذهب هدرًا؛ إذ تعبثُ بعشوائيةٍ في جسدها في الوقت الذي يلتهم فيه شفتيها بفوضوية الجائعين.

الفتاة بروحها الغائبة التي لا تزالُ حبيسة كوابيس العصاري لا تستجيبُ لمحمود الذي كان مُصِرًا على كشف صدرها بالكامل، نهمه يدفعه إلى الغضب، تحاول أن تشرحَ له.. لا يستمعُ.. يبصق في وجهها وينادي صديقه حتى قبل أن تصلح هندامَها، ويتمتم عاهرة.. رخيصة.. ويعود بها إلى ناصية الشارع حيث أوشكت زينب على الخروج من سنتر الدروس ومن المؤكّد أنها اشترت لها ملزمةً إضافيةً.

في الميكروباص، تُلقي زينب الملزمة في وجه سمية، وتخبرها أنها المرة الأخيرة التي تتستّر عليها في مقابلتها لذلك الفتى (الصايع) محمود، حاولت سمية تشتيت غضبها وأن تحكي لها عن الكابوس الذي شاهدته لكن زينب تشيحُ بوجهها بعيدًا وتذوبُ عينا سمية في الفراغ بينما بصاق محمود لا يزالُ تشعر به سائلًا على وجهها.

كثيرًا ما سمعت حكايات الجن والعفاريت المرتبطة بطريق الغاز، ذلك الطريق المشئوم والشّهير بحوادثه العجيبة، وكثيرًا ما أرجعت تلك الكوابيس المتكررة التي تشاهدها إلى ترددها غير مرة على ذلك الطريق، تذكرت المرة التي كادت يد محمود العابثة تفقدها بكارتها، لم تر خيرًا بعد ذلك اليوم، ففي كل مرة تقابله يخالجها شعورٌ قويٌ بالندم، لدرجة أنها تعتزمُ قطع علاقتها بذلك العاطل الشبق، لكنّ شيئًا ما يدفعها تجاهه، وكانت تسمّي ذلك الشيء حبًا.

دائمًا ما تبحثُ له عن تبريراتٍ، تقول لنفسها: إنه ليس سيئًا، وليس عيبًا أنه لا يعمل؛ فشقيقها أدهم لا يعملُ هو الآخر، أغلب شباب القرية لا يعملون سواء أتموا تعليمهم الجامعي أو الفني، بعضهم يحاول

تعلّم حرفة للعمل بمدينة دمياط الخاصة بالأثاث، والبعض -وهم المتعلمون- يعمل مؤقتًا في مصانع عائلة المصلي للحلويات بيومية لا تتخطّى الخمسين جنيهًا بعد خمس عشرة ساعة من الكدح، والأغلبية استسهلوا الأمر بالعمل سائقي توك توك. وكل ذلك بغرض تجميع المال الكافي لشراء ڤيزا للعمل في إحدى دول الخليج حتى يتمكن من نفقات الزواج وبناء شقة في بيت والديهم وتجهيزها.

محمود ذاته عمل سائق توك توك بعد سلسلة من الفشل في تعلّم حرفة، لكن التوك توك الذي اشتراه مستعملًا وبالقسط شرق منه بالإكراه على يد مجموعة من الغُرباء، بمجرد أن رأى مُذيةً لامعةً في يد أحدهم؛ تركهم وغاص في الزراعات بعيدًا عن الطريق الترابي النائي الذي اقتادوه نحوه، ومن يومها وهو غارقٌ مع عائلته في سداد أقساط التوك توك المسرُوق.

لم تستسلم سمية للسقوط في دوامة حُزنٍ جرّاء إهانتها من حبيبها في التوك توك؛ حتى لا تلحظ أمها شيئًا، بل دأبت على مُمارسة مهامها المنزلية اليومية من تبييت الطيور في العشّة، إلى حمل طواجن اللبن من الزريبة، إلى بعض مهام المطبخ المعتادة، لكن صراخ أدهم أخيها زلزل فرائصها، دخل المطبخ كطلقةٍ وانطلق الرذاذ من فمه كالخرطوش وهو يقول لها: «أين كنتِ؟»، ثم يهمس في أذنها بأنه يريدُ مالًا للجلوس على المقهى مع أصدقائه وأن أمهما رفضت إعطاءه كالعادة؛ فانطلقت إلى حقيبتها وأعطته كل ما معها من الفكّة بعد أن أخرجت زفيرًا طويلًا على هيئة سحابة ضبابية، هي تعلم جيدًا أن قريتهم لا تجيد حفظ الأسرار، فضلًا عن كونها مليئةً بالكوابيس.

***

لم تكُن الحال مستقرةً في بيت سمية؛ إذ إن أختها الكبرى منى تقاسمها الغرفة بعد أن تركت بيتَ زوجها، ومن يومها صارت الغرفة تئنُّ بكوابيس شمية في العصاري، وبتشنُّجات منى في الليل، ينتفضُ جسدها بقوةٍ، ينكتم صوتها، ترفس بساقٍ واحدةٍ والأخرى متصلبة كعود حطب، تتعرّق بغزارة.

في تلك الليلة، أمسك أدهم رأسها أثناء النوبة بينما انتحت سمية ركنًا وبكث مع أمها، يدخل والدها بصحبة الشيخ حسونة الدمنهوري الذي ذاع صيته في الأرجاء واشتهر بكراماته ومقدرته على علاج المسّ وفك السّحر، ولم يكن الشيخ حسونة مبالغًا في مظهره، مجرد رجل بلحيةٍ بيضاء خفيفة، ويرتدي بنطلون جينز ومن فوقه قميص وعلى رأسه طاقية شبيكة بيضاء، قرأ على رأس منى بعض آيات مُتفرّقة، وأمر بزجاجة مياه قرأ عليها الآيات تلك وتمتم ببعض الكلمات وطلب من والدها أن يسقيها منها وستكُون بخير، وانصرف.

يبدو أن تقية لم تقتنع بما فعله الشيخ حسونة الدمنهوري؛ فهي تعتقد أن ابنتها ممسوسة، وربما كادت لها إحداهن وصنعت لها عملًا شفليًا وهو ما أوصلها إلى تلك الحال المزرية، فقد أمرت سمية أن تغلي الأعشاب التي أحضرتها من عند الحاجة مسعودة؛ فلديها معرفة بالأعشاب التي تدفع السحر وتفكُّ العكوسات، تتحرك سمية نحو المطبخ ولا تبدو مقتنعةً بكلام أمها وتغلي الأعشاب على مضض.

ظلت سمية طوال الليل مستيقظةً بجوار أختها، تتأملها، وتخشى

أن تواجه المصير ذاته، لم تكن منى على تلك الحال قبل زواجها، لم يفتر وجهها يومًا عن الإشراق، كانت لاعبة مُميّزة في لُعبة كرة اليد، كانت تلعبُ في نادي شربين من قبل أن تصلَ إلى العاشرة، كان يصطحبُها والدُها كل يومٍ إلى التمرين والمباريات، فهو يحب شربين ويرتاح لأهلها، وأغلب تجارته فيها، لكن بعد أن بلغت أسرع من زميلاتها، وزَارَتها الدورة الشهرية وهي في وسط مباراة مُهمّة بين شربين ونادي الحوار، حيث تلوّث الشورت بالدماء، وتهامست الفتيات من الفريقين حولها، بعضهن ضحك والبعض الآخر شعر بالقلق حيالها، وتوتّر المدرّب وأوقف الحكم المباراة وطلب منها الخروج، كان مدربها صغير السن قليل الخبرة ود التخلُّص منها ومن ذلك الموقف سريعًا، ولم تكُن هناك أي امرأة في الجهاز الفني المتواضع، تم التعامل مع الموقف بأبشع طريقة ممكنة، بالخوف والخجل والنفور، لم تساعدها إلا عاملة طيبة أوضحت لها أن ما يحدث طبيعيٌ بل عليها أن تفخرَ به، وطلبت منها أن تبقى بالحمام حتى تحضرَ لها فوطة صحية من الصيدليةً، وعلّمتها كيف تستعملها، ثم أوصلتها إلى موقف السيارات أزكّبَثهَا إلى قريتها، ووعدتها أن تطمئن أباها عندما يحضر في موعده المعتاد، لم تتمكّن الفتاة من البقاء في المكان دقيقة واحدة إضافية بعد كل هذا الشعور القاسي بالخجل، ومن يومها تغيّرَ كل شيء داخلها، ضاع حلمها في احتراف كرة اليد، صارت أكثر خجلًا وتوحُدًا، حتى لم تستطع إكمال دراستها وتزوجت كما بلغت في وقتٍ مبكّرٍ وغير مناسب، كان زواجًا تقليديًا، رجل يصلح للزواج ويمتلك الحد الأدنى من الضروريات، كان زواجًا هادئًا في البداية، ولكن، وبعد سنواتٍ قليلة من زواجها، وبعد

مشوارٍ طويلٍ ومضنٍ من العلاجات والأدوية الهرمونية التي تلاعبت ودمّرت نفسيتها وروحها، وغيّرت شكل جسدها، حرمتها النوم وزادت عصبيّتها وحساسيّتها، ونقلتها بين موجات كآبة متعدّدة، وخلقت داخلها كراهيةً شديدة لجسدها، ونظرة دونية لذاتها كونها خلقت برحمٍ ومبيضين غير صالحين، كأنها جنسٌ ثالثٌ أو امرأة منقوصة، فالإنجابَ وحده هو صك أنوثتها وصلاحها، رغم أنه غير مُتاحٍ للجميع، وهناك بشرٌ لا ينجبون ولا يتزوجون حتى، وبعد تحمُّل الإهانة والتقليل من أهل زوجها، عادت إلى بيت أهلها تبكي عندما تأكّدت أنها لن تنجبَ أبدًا، لأنها وبالطبع من دون قصد منها قد ولدت عقيمًا بعيبٍ خلقي بالرحم ولا فرصة حقيقية للعلاج ولا حتى بالحقن المِجهَري، وبعد عدة أشهر شاركتها امرأةٌ أخرى بيتها، وانقلبت حال زوجها بعد أن أنجب ذكرًا، وفي يوم وليلة وجدت نفسها خادمةً لضُرّتها، وتكرّر غضبها في بيت أبيها، وطلبت الطلاق في غير مرة، لكنّ أباها لا يوافقها ويعيدها إلى بيت زوجها وهو يتمتم في أذنيها: «حقوقك، يا بنت الكلب»، ولا تجد من زوجها إلا المُعايرة الدائمة، والضغط عليها للتنازُل عن حقوقها إن أرادت طلاقًا.

مع الوقتِ، ذاع في القرية أنّ منى مجنونة بعد أن خرجت في أحد الأيام من بيت والدها بقميص النوم تجري في القرية وتصرخ، ولمّا علم زوجها؛ تهجّم عليها في بيت أبيها وضربها، واشتبك مع أخيها أدهم؛ فحرّروا ضده محضرًا بالتعدّي كورقة ضغطٍ تضمن لهم حقوق ابنتهم عند الطلاق، لم تحكِ منى حقيقة ما حدث معها يومها، فلقد حضر إليهم شيخٌ يقال إنه قادر على جعل النساء العقيمات حُبليات، أدخلته والدتها عليها وهي نائمة بعد أن تناولت معهم وجبة الغداء،

وكان من عادتها أن يصيبها النعاس كلما تناولت طعامًا، كانت ترتدي قميصًا خفيفًا للنوم، دخل عليها الشيخ وخرجت أمها كما أُمرت، وحاول ملامسة جسدها، صرخت وانتابتها حالة ذعر شديدة ولم تشعر بنفسها إلا شبه عارية والناس حولها، ومن يومها صارت منى أسيرةً للحزن، العار، والكآبة، والتشنُّجات كلما حلّ المساء.

***

لم تكُن من عادات خليل والد سمية أن يستيقظ ليصلي الفجر، لكنه في ذلك اليوم أحسّ بعطشٍ شديد، كأنّ حلقه صار حجرًا، وأمام ضوء الثلاجة الداخلي الشحيح وقف يكرع من الزجاجة مُباشرة، يبدو أن انشغاله بابنته منى قد أرّق نومه، وجالت في رأسه بعض الأفكار، كان آخرها أن يلقي نظرة عليها يَطمئن بها قلبه، كانت منى تتمدّدُ على السرير بشكل قُطري لم يسمح لأختها سمية أن تنام إلى جوارها، بالفعل لم يكُن لسمية أثر بالغرفة، نظر خليل وهو يتسحب بحرصٍ لئلا يفزع منى، لكنه لم يجد سمية على الأرض حتى، نظر أسفل السرير، بغرفة أخيها أدهم، داخل الأركان، خلف الكنبة التي على جانب غرفته، أسفلها، دورة المياه، لا أثرَ لها كأنّها فص ملح ذاب.

استيقظت زوجته تقية على لكزةٍ واحدةٍ منه في منتصف صدرها تمامًا، قامت تشهق كمن استنشق فلفلًا أسود لتوّهِ، وسرعان ما كرّرت البحث في جنبات البيت كما فعل خليل، أدهم الذي استيقظ على جلبة وصراخ وزعيق يكرر بدوره دورة البحث الفاشلة، كأنهم يظنون أنّ سمية تلعب معهم الغميضة، وربما تفزع أحدهم قبل أن يكتشف مكمن اختبائها.

تقية تحاول إيقاظ ابنتها الكبرى منى، لكنها تجدها على وضعها مُمدّدة على السرير، لم يزد عليها سوى أنها علّقت عينيها بالسقف من دون أن يهتزّ لها جفنٌ، ولم تجب عن أيٍّ من الأسئلة التي انهالت على رأسها كشلالٍ.

عندما أوشك الصباح؛ انطلق خليل من جهة، وابنه أدهم مع بعض أصدقائه من جهةٍ ثانيةٍ، يسألون الأقارب، والجيران، والمعارف، والأصدقاء، حتى كأنهم لم يتركوا دارًا لأحدٍ يعرفهم ويعرفونه إلا سألوا فيها، ولم يمض كثيرٌ من الوقت حتى انتشر الخبر في القرية بأكملها.

المستشفى العام، قسم الشرطة، بيت صديقتها المُقرّبة زينب، جميعها أماكن عاد منها خليل محبطًا. الفضيحة صارت تأكل وجهه الذي نكّسه في الأرض طوال ساعات بحثه المُمتدة، ولم يجد أمامه سوى هاجسٍ واحدٍ ظلّ يردده بين ذاته بالرغم من استحالته، ربما خطفها أحدهم وهي نائمة بجوار أختها، وفي الحقيقة، لم يكُن ذلك خاطرًا مُقنعًا لأحدٍ، ولا إلى ذاته، لكنه كان يدفعُ به هاجسًا أسوأ مفاده أن ابنته الصُغرى سمية هربت من البيت.

لم يكُن خليـل رجلًا ثـريًا، لكنه لم يكُن فقيرًا أيضًا؛ فلديه فدان زراعي، وجَرّار، وعدة رؤوس من الماشية، وهي أمور لن تقنع أحدًا بروايته التي لفّقها عن اختطاف ابنته دزءًا للفضيحة، أو بالأحرى لتقليلها.

تهامس الجيران عن هروب سمية كان يخرقُ طبلة أذنه، الفضيحة أطبقت على رئتيه، صار يتنفّس بمشقةٍ، وبرك على باب بيته بعينين

مُفعمتين بالانتظار نحو أول الطريق.

***

خليل كان يرزخ تحت ميراثٍ ثقيلٍ من العار القديم، ولم يكُن أبدًا بحاجةٍ إلى عارٍ جديد يفتح سجل عائلته المخجل في الذاكرة الهشَّة لأهل القرية.

قبل عشرات السنين، هبطت على القرية جماعةٌ من الغجر، أقاموا عند أطرافها، لم يكن بالقرية أولياء ثُقام لهم الموالد، لكن كان هناك الإنجليز الذين يديرون ويحرسون شون الغلال؛ هؤلاء أصحاب البشرة المُشَرَّبة بالحُمرةِ والذين تركوا زوجاتهم وخليلاتهم هناك في مدن الضباب البعيدة، يحتاجون من وقت إلى آخر لمن يبعث في عروقهم الشبق، كان من بين هؤلاء الغجر الذين أقاموا تعريشةً من البوص ثلاث أخوات يهوديّات تعرفن إليهم في أحد الموالد، ولم يكُن من الصّعب إقناعهن بمصاحبتهم لتلقيط الرزق من أرض الله الواسعة، الأخوات اليهوديات الثلاث كُنّ يرقصن في الموالد، وفي بعض الخمّارات التي تنتشر على ناصيات القرى، ولم يكُن من الغريب على الغوازي في ذلك الزمن أن يتنقّلن مع جماعاتِ تحميهن، وليس هناك أفضل من الغجر. الغجر أيضًا وجدوا في الأخوات الغوازي مصدرًا جاذبًا للزبائن من أعيان القرى والنجوع وجنود الإنجليز وبعض كبار الأفندية.

الأكشاك الخشبية التي كانت مُعدّة لإقامة الجنود لم تكن تخلو من غنج الغجريات وتأوهاتهنّ ليلًا، على الرغم من الموسيقى الصاخبة التي تصدر من تعريشة البوص كلما هبط الليل، وأهل القرية لا

يعترضون؛ ربما لاعتيادهم مثل تلك الممارسات؛ إذ كانوا يعتبرون أنفسهم من طينةٍ أخرى غير طينة الإنجليز التي لا تقدس حرمة العلاقات، وربما لم يعترضوا؛ لأنهم لا يملكون تلك الرفاهية.

كانت رحيل الأخت الصغرى أكثرهن فتنةً ودلالًا، وانفلاتًا أيضًا؛ فعلى الرغم من حصار أختيها الكُبريين لها فإن ذلك لم يمنعها من إقامة علاقة مع جوني الجندي الإنجليزي الأمهق ذي الشعر الكستنائي الباهت، كان سخيًا معها إلى أبعد الحدود، بالطبع، لم يكُن اسمه الحقيقي جوني، ولكن كل الإنجليز كان يُطلق عليهم ذلك الاسم من قِبلِ أبناء البلد.

رحل جوني عن شونة الغلال من دون مقدمات، وظلّت رحيل مرتبكةً لعدة أيام، تسأل عنه زملاءه، لكنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئًا، وحاول الكثيرون منهم أن يتقرّبوا إليها، لكن إغراءاتهم وهداياهم لم تكُن سببًا كافيًا تلك المرة، وفي يوم وليلة، ذاع في القرية كلها أن البدري، ذلك الفتى القمحي النحيل، ابن الكلّاف، قد تزوج رحيل، وأنها أسلمت، وتركت حياة الغوازي لأختيها بلا رجعة، وهو الأمر الذي حسده عليه جميعُ رجال كوم الديبة والقرى المجاورة، وأضحى مثار تحفّظ على تلك اليهودية، الغَزِية، من نساء القرية.

كان البدري مرتبكًا عندما أخبرته الداية أن رحيل حامل، أهل القرية أيضًا لم يلتفتوا كثيرًا إلى ذلك الخبر، لكن ما انتشر في مسامعهم بسرعة البرق كان عندما أنجبت ولدًا أمهق بشعر كستنائي باهت.

بعد ليلتينِ، وعندما تناهى إلى مسامع رحيل من أختيها أن أهل القرية ائتمروا لطردها مع ابنها ابن الحرام من زمامهم بالكامل،

والبدري أيضًا إن اعترض؛ قررت الهروبَ في ستار الليل مع أختيها، ولم تخبر البدري بما عزمت عليه، ولم تأخذ قطعة اللحم الحمراء التي أسموها إبراهيم، أخذت فقط ذهبَها الذي كنزته طوال رحلتها في كار الغوازي، والذي كانت تدفنه أسفل أحد الأركان، والتقت بأختيها اللتين جمعتا كنزيهما، وقبل أن يصلن إلى أول القرية، وبينما كُنَّ على جسرٍ صغيرٍ فوق الترعة، اعترضهن من كلا جانبي الجسر جمعٌ من اللصوص الذين علموا بهروبهن من بعض الغجر، تخاطفوا ما معهن من ذهبٍ بعد مقاومةٍ مستميتةٍ، ومزقوا عباءاتهن السوداء، وربطوهن بحبال سميكة وألقوا بهن في الترعة مخافة أن يفتضح أمرهم، ومن يومها انتشر في القرية إلى الآن أن الذي يمرُّ من جوار جسر الترعة قبل الفجر بساعتين يشاهد ثلاث نساءٍ يرتدين عباءات سوداء مهلهلةٍ، ويصرخن من دون توقُّف، كما ذاع أيضًا بين أهل القرية أن البدري صار اسمه من حينها القرني، وهو اللقب الذي استمر في نسله إلى أن وصل إلى خليل والد سمية، كما استمر في نسله ذلك اللون الأمهق والشعر الكستنائي الباهت.

جيران خليل بدأوا يتداولون تلك الحكاية القديمة من جديدٍ بالإضافة إلى تعري ابنته الكبيرة، بعد اختفاء سمية، كما تداولوا في همسهم سلوك سمية المعوج وعلاقتها بمحمود، وهو الأمر الذي دفع خليل في ثالث أيام اختفائها أن يحرِّر محضرًا بتغيُّبها، واتهم فيه محمود مرةً باختطافها وأخرى بغوايتها، لكن الشرطة أخلت سبيله بعدما فتَّشوا بيت والده ولم يجدوها.

قبل عام

تتمدّدُ أسما على فراشها وقد علقت عينيها في سقف الغرفة، في الظلام تتجسّد أمامها صورٌ من الماضي لا تبارحها، بناتها لا يتوقّفن عن الفوضى، الصُغرى تزنُّ جوعًا، وشقيقتاها تتعاركان كالعادة، وبالرغم من تلك الفوضى تشعرُ أسما بدوران المِفتاح في كالون الشقّة، يدخلُ إليها زوجها سامح وقد طفا على وجهه الغضب، يعودُ إلى بناته في محاولةٍ لتهدئتهن، ويتمتم: «نوبة كآبة جديدة»، يأخذ البنات ويهبط بهن إلى والديه في الطابق الأرضي، بحُكم العادة، تعرف أن زوجَها لن يصعد لها إلا في الغد، ببطءٍ، تذهبُ إلى دورة المياه، تغسل وجهها، وتتفحّص طويلًا شعرَها الأشقر المُموّج في المرآة، تتوجّه في آليةٍ إلى المطبخ، تصنع كُوبًا من الشاي ورغيفًا محشُوًا بالمربّى، تركلُ ألعابَ البنات المُبعثرة في كل مكانٍ، وتجلس على كرسيها الخشبي المواجه للشُرفة، الظلام يلفُّها بإحكامٍ إلا من ضوءٍ يتسلّل خجولًا من فتحات الشرفة، القمر يبدو شاحبًا كبشرتها، تتناولُ المربّى، وترشفُ الشّاي على مهلٍ، تسبحُ في أفكارها حتى تطلع الشمس، تقوم، وتتمدّد على سريرها حتى أذان العصر.

«إذا كُنت مريضةً نفسيةً؛ فهناك طب ودواء يا دكتورة».

لم يكد سامح ينتهي من جُملته حتى التفتت إليه أسما تحدّق في عينيه الواسعتين، وسمرته المثيرة، وأنفه الكبير، وشعره الجعد، تتذكّر أن ذلك التشابه بينه وبين عمر الشريف هو ما أوقعها في غرامه منذ أن كانت مُراهقةً، تتوجّهُ إليه بابتسامةٍ فاترةٍ، وتُقبّلُه من خده ببرودٍ، ولا ترُدُّ عليه ولو بكلمة.

يظلُّ يحاصرها بنظراته، لكنّها لا تكترثُ، يتركها هابطًا إلى والديه في الطابق الأرضي حتى لا تتلف أعصابه من هدوئها الثقيل.

تقف أمام المرآة تتفحّص عودَها الفارع، وعينيها الخضراوين، وبَشرَتها الفاتحة المُشرّبة بالحُمرة، تحتضنُ جسدَها، وتغمض عينيها وتدندنُ بلحنٍ قديمٍ، وتدورُ بالغُرفة في رقصةٍ حالمةٍ، تتعثّر وتسقط على الأرض، تقومُ ببطء، تضعُ طرحة على رأسها وتنزل إلى بيت حمويها كأنّ شيئًا لم يكُن، تساعد حماتها في تنظيف البيت وإعداد الطعام، يراقبها سامح وهو يلعب مع بناته، بينما اعتاد أبواه ذلك المِزاج المتقلّب لأسما، كانوا يصبرون عليها فقط لكونها أمًا للبنات على الرغم من أنهم لا يرونها تصلح لذلك.

***

«سامح يحبك يا أسما، ويعشق بناته. دعكِ من تلك الأوهام».

نظرت منة الله إلى أسما بمزيدٍ من الشّفقة، وهما جالستان على سطح منزل منة المبني وسط الأراضي الزراعية بعيدًا عن جلبة القرية، اعتادتا منذ الطفولة قضاء أوقاتهما معًا، وكانت الأسرارُ لا تعرفُ أن تختبئ بينهما، وقد تسلّلت لهما عادةٌ قديمةٌ بالجلوس بعيدًا عن الرقباء من أجل تدخين السجائر، ولا تنتهي الجلسة إلا مع آخر سيجارة بالعلبة، ولم تنقطع مقابلاتهما إلا بزواج منّة وسفرها إلى الكويت مع زوجها، وعندما مرضت حماتها؛ عادت لتعتني بها وعلى كتفها طفلها الوحيد، ولا ترى زوجها سوى شهرٍ واحدٍ في السنة، وعادت لقاءاتها مع أسما من جديدٍ، ربما كانت كلٌّ منهما ملاذًا للأخرى تنفث معها همومها ودخان السجائر.

تقضم أسما تفاحةً في يدها، وتسحب نفسًا عميقًا من السيجارة، وتنظر إلى منة:

- لا يحبني لا هو ولا أهله.

- مجرد أوهام.

- لا.. ليست أوهامًا.

تدخّن بشراهة، وتبدو على حافة الاعتراف بسرٍّ جديد..

- إنه يبحث عن عروسٍ جديدةٍ تلد له ذكرًا كما نصحته أمه، سامح موظّفٌ كبير في البنك وعائلته مقتدرة ماديًا، لا شيء يمنع زواجه الثاني.

- وما الحل؟

تبادلتا النظرات في صمتٍ طويلٍ، حتى عادت إلى بيتها مع الغروب.

***

كانت أسما تداعب بناتها في حادثةٍ لا تتكرّر كثيرًا في الأيام الأخيرة، حتى أخبرتها ابنتها سَلمَى أنّ مدرس الرسم طلب من التلاميذ أن يرسمُوا شمسًا بأشعةٍ ذهبيةٍ كخصلات شعرها، وأنه وضع يده على رأسها؛ اتسعت حدقتا أسما، وسحبت ابنتها بعنفٍ، وانفردت بها في غرفتها، وحاولت استنطاقَها بالمزيد، لكنها لم تقُل أكثر مما قالت. ظلت طوال اليوم تنظرُ إلى بناتها بإمعانٍ، وبالرغم من أنّ التوءَم سلمى وشها في الصف الثالث الابتدائي، ونور الصغرى

في الروضة، فإنهن جميلات لافتات للنظر، وقد ورثن منها البَشَرَة البيضاء والملامح الجميلة، وهو ما يُغَذّي لديها الشعور بالقلق البالغ والخطر الذي يحدق بهن؛ «لم يكُن عمري إلا تسعة أعوام حين حدث ما حدث.. ولم تُجدِ دموعي وتوسلاتي نفعًا». هرولت إلى المطبخ، وسحبت البنات خلفها، وأمسكتهن واحدةً بعد أخرى وجزَّت شعرهنّ حتى صرن كالأولاد.

صعد حمواها على أثر صراخ البنات، ولمّا شاهدا ما فعلت فيهنّ؛ صفعها حموها، وجرجرها إلى الخارج كما هي بملابس البيت. ولم تشأ المزيد من الفضائح، فقط، توجّهت إلى بيت عائلتها، وانتظرت زوجها حتى يعود من العمل ويعلم ما حدث.

***

في المساء، كانت ثورة سامح أمرًا متوقّعًا، كانت تعرف أن عروقه النافرة، والشّرر المنطلق من عينيه، وصراخه في وجهها نابع من حُبّه لبناته وشفقته عليهن من تصرفاتها غير المُبرّرة، وبينما هو في ثورته؛ كانت تجلس على كنبةٍ أسفل نافذة في صالة بيت والديها، صامتة تمامًا، ووالدها يحاول تهدئته، لكنها غاصت بذاكرتها إلى ذلك اليوم البعيد حيث كان والدها بمحل الأدوات المنزلية الذي يملكه، ووالدتها على فراشها تعاني الحُمّى، وأخواها يلعبان الكرة في الشارع الخلفي، وقتها جاء الشيخ فكري الذي يحفّظها القرآن، تذكر أنها كانت تسبق أخويها في الحفظ؛ فكان يبدأ معها الشيخ فكري أوّلًا، يومها طلبت منه أن تخبر أخويها بمجيئه، لكنه رفض، وأجلسها إلى جواره تُسمّع له ما حفظت، وكان ملتصقًا بها، وبعد وقت، احتضنها، وقبّلها من

رأسها، ثم هبط بشفتيه الثخينتين على وجهها ورقبتها، كانت رائحة أنفاسه كريهة، وقبل أن يستأنف ما بدأ؛ سمع وقع أقدام أخويها؛ فنظر إليها وهو يُربّت على كتفها، وقال: «شاطرة»، لكنها ظلت مُتسمّرة في مكانها إلى أن انصرف.

أفاقت على صراخ سامح وهو يُعنّفها أمام والديها، وبدت أمها مراوغة وهي تحاولُ إقناعه أنّ ما فعلته أسما بالبنات كان من أجل إبعاد عيون الحاسدين عنهنّ، ولفّقت كذبةً أخرى حين أخبرته أنها صاحبة الفكرة وأنّها نصحت ابنتها بذلك، كما أنه من غير اللائق أن يضربها والده ويطردها ببيجاما البيت، ولكن عفا الله عمّا سلف.

وبعد قليلٍ من محاولات الترضية؛ اصطحبها سامح إلى البيت مرةً أخرى، وصعدت إلى شقتها المفروشة على أحدث طراز من الجبس المعلّق والأثاث المستورد بعد أن اعتذرت لحمويها نزولًا على رغبة زوجها، وظلت متكورةً في فراشها إلى صباح اليوم التالي بعد أن توجّه سامح إلى عمله.

منذ ذلك اليوم، عمدت إلى اختيار ملابس واسعة للبنات، وتنبيههنّ الدائم إلى ضرورة حماية أنفسهنّ، والصراخ إذا حاول أحد ما لمسهنّ، ودأبت على سرد قصص وحكايات عن فتياتٍ قويّاتٍ يغلبن الشرّ والخوف، ورغم صغر أعمارهنّ؛ فإنها أيقنت بأنّهنّ يفهمنها ويستمتعن بما تسرده لهنّ كل مساء، وتظلُّ إلى الفجر تتردّد على أسرّتهنّ، تتفحصهنّ بنظراتٍ وجلة، وتعود إلى غُرفتها، تظلُّ تنظر إلى سامح وهو متكوّمٌ إلى جوارها، وتتقاذفها الذكريات إلى الماضي، ولا تعرف إلى الآن كيف أقنع الشيخ فكري والدها بأن يرسلها إلى بيته

حتى تكون وسط الفتيات اللائي يتردّدن عليه لتحفظ معهن القرآن بشكلٍ أسرع. ويحفز فيها روح المنافسة في المرة الأولى التي ذهبت إلى بيته، كان نوفمبر رسولًا للشتاء، وكانت تشعرُ بالبرد الذي احتلّ مفاصلها الصغيرة، لم تكُن قد أتمّت العاشرة بعد حينٍ صعد بها الشيخ فكري إلى سطح منزله، والذي كان خاليًا إلا منهما وبعض الدكك الخشبية المُتناثرة من عشوائية الأطفال أثناء المُغادرة، بدا المكان غيرَ آمنٍ من هجمات البرد أسفل سقف معرُوش بالهيش وجريد النخل، أجلسها بجانبه، ولما رآها ترتعشُ؛ احتضنها، وأزاح طرحتها الخفيفة، وفرك خصلات شعرِها الذهبية بين أصابعه الجائعة، راح يتشمّمها، ويُقبّلها بنهمٍ، ومدّ يده أسفل ملابسها، ولمّا صرخت صفعها، وشدّد عليها ألّا تخبـر أحدًا؛ حتى لا يضربها أبوها، استسلمت لعبثه وهي تبكي، وعندما سحب يدها إلى جسده ارتعش جسدها وفارت معدتها حتى تقيأت بشدّة، فانزعج منها وطردها. ومن يومها كانت تستسلم لضرب أبيها حتى لا تحفظ القرآن إلى أن يئس منها، وتركها.

لم تكف حماتها عن مُضايقتها بعد تلك الواقعة، تعلم أنها تتأفف من الحيوانات والطيور بالرغم من كونها طبيبةً بيطرية، كانت ترسل إليها دجاجاتها لتكشف عليها، وكانت دائمة الرفض لدخولها معهد الأشعة، وتُحرّض ابنها للرفض أيضًا، حلمت أسما بالاستقلال، حدّثت سامح أنها بعد حصولها على دبلوم الأشعة قد تفتح معملًا للتحاليل الطبية، لكنه كان يقول لها إنهم ليسوا بحاجةٍ إلى المال، وأنّ عليها الاعتناء ببناتها وبيتها، وينظر إليها نظرة استخفافٍ، ويتركها إلى شقة والديه.

سماواتٌ غائمة

«مامي.. ساو.. مامي..».

كانت تلك الهمسات كفيلةً بإيقاظ سارة من نومها، «ساو».. كما كان يناديها ابنها (زياد)، تكاد أشعة الشمس أن تتسلل في فضاء القرية، وإنجي تستغرق إلى جوارها في النوم، هرعت سارة تبحث في أرجاء الغرفة، إنه صوت ابنها بالفعل، إنها لا تحلم، حاولت إيقاظ إنجي؛ لتتأكد من أنها ليست واهمةً، والصوت لا يزال يخرقُ أذنيها بالرغم من خفوته.. «مامي.. ساو..»، إنجي التي بدت لا تفهم شيئًا تقاومُ نور المصباح الذي يطعن مقلتيها، وسارة التي لم تسأل كيف عاد ابنها، ولا كيف أتى، انطلقت خارجةً تبحث عنه حول البيت، وفي الأزقة المُتاخمة، حتى قادها الصوت نحو الترعة حيث وجدته جالسًا على ضِفَّتها، حزينًا، يُخبئ وجهه بكفيه، ويبكي، ولمّا نادته، التفت إليها مُبتسمًا، وقفز في الترعة، وأشار إليها أن اتبعيني، وهي مُتسمّرة في مكانها وقد اتسعت عيناها وانفرج فمها كمن يشهقُ من دون صوت.

كانت إنجي قد أدركت أن أمرًا غير طبيعي يحدث، وأن كارثةً على وشك الوقوع، كانت تجري خلفها ببيجامة النوم وتصرخ باسمها وهي تراها تتحرّك ببطءٍ نحو ضِفة الترعة شديدة الانحدار، وقبل أن تقفز أمسكتها أيادٍ غليظة ومُشقّقة لبعض المزارعين الذين انتبهوا إلى صراخ إنجي الذي لم ينقطع. قاومتهم قبل أن تهدأ فجأةً عندما اختفى زياد، وتلاشى صوته الذي ذاب في سماءٍ لا تزالُ غائمة.

في اللحظة نفسها سمع الجميع خصوصًا البيوت القريبة من

غيطان الذرة، صرخات فتاة أخرى تطلب النجدة، صرخات متتابعة عالية، لينصرف الرجال إلى مصدر الصوت ومعهم أسلحتهم البيضاء كالمطواة والفأس، يفتشون حقول الذرة العالية، من دون العثور على الفتاة التي استنجدت بهم، ولمّا طال البحث والهرج من دون جدوى، خلا الجمع، بعد أن فسّروا ما حدث أنه ربما اختطفت الفتاة بعيدًا، وإن كان الصوت هو صوت النداهة، وفي الأخير لم يبلغ أحد عن اختفاء فَتَاتِهِ.

***

تجلس إنجي إلى جوار سارة التي تتمدّد على السرير ترتجفُ، ووعيها يتماسك رويدًا، تنظرُ إلى ابنة خالتها وتهمُّ أن تبوحَ لها ببعضِ الأسرار، ثم تتراجعُ، لكنّ الأسئلة التي تتوالى من عيني إنجي تحاصرُها ولا تترك لها فرصةً للتراجُع، على الأقل إن أرادت التّكتُّم؛ فعليها تلفيق قصة تبرّر ما حدث على ضفة الترعة، أخذت تُردّدُ كلماتٍ وأفكارًا حول شُعورٍ غريبٍ بالغرق يجتاحها، وأنها لم ترد الانتحار، لكن شيئًا كان يدفعُها إلى القفز، ورغبة جامحة بالموت، وأشياء من هذا القبيل على النحو الذي أربك إنجي وجعلها تطلب المُساعدة من الدكتور أحمد الذي فيما يبدو أن ساقيه ستألفان المنزلَ كما قالَ مبتسمًا في محاولةٍ لمداعبة سارة، ونصحها قبل أن يغادرَ بضرورة زيارة طبيب نفسي.

في الصباح، كان شرطيٌ من القسم يخبرهما أن عليهما الذهاب إلى ضابط المباحث في قسم بسنديلة، القرية المجاورة لهم. ليسألهما عن اختفاء سمية؛ إذ شاهدها أحد الجيران تتسلل إلى بيت سارة فجر

يوم اختفائها. في القسم وجدت سارة صديقها القديم يحيى الذي صار محاميًا ذائع الصيت، وكان ينتظرها بعد طلب من خالتها؛ والدة إنجي، ليكون إلى جوارهما في التحقيقات حتى وإن كانت شكليّةً، تأملته سارة طويلًا حتى تذكرته على الرغم من أن ملامحه لم تتغير على نحو ملحوظ؛ إذ لم تظهر عليه أيّ علاماتٍ للتقدم في السن قياسًا لرجلٍ على مشارف الأربعين، لم يزحف الشّعر الأبيض في رأسه، ولم تتوسطه صلعةٌ كبيرة، ولم تبرز كرشه كبقية أبناء جيله، ولم تنحنِ قامته، ولم يكُن بنظارةٍ سميكة، بل زاد بهاءً وجاذبيةً، إنجي تبدو متوترة وسط كل تلك الذكريات التي سقطت فيها سارة، ولم تفلح محاولات يحيى المتكرّرة في تهدئتها وأنّ الأمر روتيني، ربما لحداثة سنها، ولصداقتها التي تجمعها بشمية منذ المرحلة الابتدائية.

أثناء التحقيق أخبرت سارة ضابط المباحث أن فجر يوم اختفاء سمية سمعت طرقًا سريعًا على بابها حيث أخبرتها إنجي أن التي بالباب صديقتها سمية التي اتصلت بها منذ قليل وتريد مساعدتها، وعندما اضطرت إلى إدخالها، علمت منها أنها هربت من البيت تشكو سوء معاملة شقيقها وأمها، وأنها تخشى أن تنال مصير أختها نفسه التي أصبحت ميتة وهي على قيد الحياة، ثم تلقّت اتصالًا على هاتفها حيث بدت قلقةً زائغة العينين، وبعد انتهائه ادّعت أنه من والدتها وأنها ستعوذ إلى المنزل حالًا، وخرجت في السادسة صباحًا ولم يفارقها التوتر بعدُ.

وفي أثناء خروجهما من القسم، أشارت إنجي إلى سارة نحو محمود الذي كان ينتظر دوره في التحقيق معه ثانيةً، وهمست في

أذنها بما يفيد أن سمية لا بد أن تكون هربت معه، وربما تزوجته سرًا.

يحيى كان ثرثارًا في طريق العودة من القسم، بعد أن أصرّ على توصيلهما بسيارته وتجاذبا معًا تلك التغييرات الحادّة التي اجتاحت الريف ومجتمعه في السنوات الأخيرة، والتي خلخلته ومزّقت حتى شمل الأسرة الواحدة، وكل ما أحدثه ذلك التطور من فوضى جعل البعض يستغلونها لتحويل خضرة الزراعات إلى مبانٍ قبيحة المنظر، خصوصًا بعد غزو الأسفلت للشوارع الرئيسية وتحدّثا عن الاستخدام المفرط لمواقع التواصل الاجتماعي، وانتشار الشّائعات، فصارت وسائل التواصل الإلكتروني بمثابة جلساتٍ نميمة واسعة عبر الجروبات ومصدرًا جديدًا للتلصُّص والتطفُّل على حياة الناس، وبخاصة ضد الفتيات اللائي ينشرن صورهن الخاصة عبر الصفحات أو يظهرن في مقاطع فيديو، ثم ضحك ساخرًا وقال:

- هل تذكرين أستاذ عادل فهمي مدرس الكيمياء في الثانوي، الذي كنّا نرتعب منه، ابنته نجمة تيك توك، تظهر عليه نصف عارية ليلًا، وفي النهار تسير بيننا بالنقاب!!

أيضًا الانفتاح الكبير على العالم أدّى إلى تزايد العُنف وارتفاع نبرات التحدّي والغضب لدى الشباب الذي أصبح مغيّبًا وتائهًا يسير بملابس غريبة عليها مصطلحات وأعلام دول غربية، وبتسريحاتٍ شاذّة على مجتمعاتهم، الفتيات أيضًا صرن يلبسن كلّ ما هو أكثر ضيقًا، وصرن أقل حياءً، وأغلظ صوتًا، وبعضهنّ يحملن أسلحة بيضاء، ويدخنّ السجائر خلسة، ويتعاطين الحبوب المخدرة ومشروبات الطاقة بعد توافرها في محلات البقالة. كل ما سبق جعل إحساس سارة بالغربة

يزداد توغلًا فيها، وجعل حنينها إلى الريف القديم يزداد بقوة.

كذلك تعجبت سارة من توافر مختلف أنواع الخضراوات والفاكهة المستوردة في سوق الثلاثاء، وغيرها من المزروعات التي لم تكن معزوفة في الريف قبل سفرها، أيضًا الجبن المستورد، واللحوم المدخّنة، والمُجمّدة، والألبان المُعلبة، والأطعمة نصف المُجهزة، التي تعتمدُ عليها النساء الآن عوضًا عن تربية الدواجن، والخُبز الآلي الذي كانت تتقزّز منه الأمهات ولا تقبل به حتى طعامًا للماشية والطيور المنزلية إلا نادرًا، صار الآن بديلًا للعجن والخبز، وتحوّلت النساء إلى تمضية يومهن بين شاشات الهاتف النقال والتلفاز وصالات الألعاب الرياضية، ومع ذلك أغلبهن لا يعملن وهن خريجات جامعة، وذلك لضعف فرص العمل وبعدها عن القرى وعمل الأزواج بالخارج، ووجوب بقاء الزوجة حبيسة البيت لرعاية الأولاد وأهل الزوج، لتصيرَ كلُّ واحدةٍ فيهن ربّة منزل من دون مهامٍ حقيقية.

وما أحزن سارة كثيرًا هو تحوُّل شارع البحر إلى مول كبير، وانتشار محال وماكينات القهوة، والفشار، والمشروبات الغازية، وعربات الإندومي، الكل يستغل انتشار مراكز الدروس الخصوصية بالشارع وتوافد الطلاب من القرى المجاورة. كان لها في كل شبر من هذا الشارع ذكرى، مدرستها الإعدادية، وحصص الدروس الخصوصية، والعديد من الذكريات التي تشوّهت بفعل المدنية الوحشية التي طغت على الريف.

***

كانت سارة فوق سطح منزلها عندما شاهدت الترعة من خلف

البيوت القصيرة التي تحول دون رؤيتها إذا نظرت من النافذة، كانت لديها رغبةٌ قويةٌ للنظر إلى المشهد من مكانٍ مرتفعٍ، كانت مياه الترعة تتدفّقُ على غير العادة، وقارب صيد على متنه رجلٌ يبدو أنه يعلّم ابنه كيف يجدف، بينما أسفل الحافة المقابلة رجل يحمم عجلًا صغيرًا.

الأجواء الغائمة تلفُّ القريةَ بالكآبة، ربّما كان ذلك انطباع سارة على الأقلّ، فضلًا عن أنّها تمقتُ لحظة الغرُوب، تعتبرُها نهايةً للعالم، كما أنّ الشفقَ يبدو كدمٍ منتثرٍ، والشمس تبدو ككدمةٍ في جبين السّماء، كانت الأبخرة المتصاعدة من فنجان القهوة تؤكد استمرار الحياة؛ إذ إنها كثيرًا ما تظنُّ أنها ميتةٌ، أو أنها حبيسةُ حُلمٍ طويل، كابوس على الأحرى ذلك الصُداع الذي صار ضيفًا يوميًا ثقيلًا وصارت القهوة لا تصرفه ولو قليلًا.

أمست الأسئلة تصطك برأسها، عن كونها امرأةً شؤمًا، فتزامن وقت عودتها إلى القرية مع حوادث الغرق واختفاء أسما، وربما غرقها، مَن يدري؟ وأين ذهبت يا ثُرى؟ هل كان من الواجب أن تترك إنجي تموت ولا تحضر إليها الطبيب وتتبع أسما عندما شاهدتها في تلك الحالة الغريبة؟ هل بالفعل ما زالت تغار من أسما؛ لذا تركتها تواجه مصيرًا مجهولًا ولم توقفها؟ هل قتلتها بالتركِ وعدم الاكتراث؟

كانت الأسئلة تتزاحمُ داخل رأسها الذي كاد ينفجرُ من الصُداع، ذلك الصُداع المُزمن الذي يزدادُ شراسةً يومًا بعد يومٍ، تناولت حبةً من عقارٍ مُضاد للاكتئاب، اعتادت تناوله منذ فترةٍ، بالتحديد بعد أن اختفى ابنها في يوم ذي سماء غائمة كهذه الأيام التي تحياها منذ

ذلك الوقت، هبطت لتشاهد التلفاز؛ ربما ساعدها على تخفيف حدّة توترها من تدفُّق الذكريات، بخاصّة المتعلقة بصديقة طفولتها أسما المختفية.

العلاقة بينها وبين أسما لم تسر على وتيرةٍ واحدة، صداقتهما كانت منذ الحضانة، تعاركتا كثيرًا، وتصالحتا كثيرًا، براءة الأطفال التي لم تفارق زُوحيهما حتى المرحلة الثانوية كانت كفيلةً باستمرار صداقتهما، حتى أفشت سارة سر العلاقة التي تربط أسما بابن صاحب البنزينة، كان سيئ السمعة، ولم تترك طالبةً في الفصل إلا وأخبرتها عن تلك العلاقة التي ائتمنتها أسما على أدق تفاصيلها، لم تكُن تعلم لِمَ عليها إفشاء تلك الأسرار؟ ولم يكن لديها دوافعُ مُحدّدة، فقط راحت تسترسل عن القُبلة الأولى التي ذهبت بعقل أسما، وعن اكتشافها لجسد حبيبها خلف جذع شجرةٍ عملاق مرة، وفي مخزن الدكان مرّات أخرى، وعن سر انتفاخ نهديها فجأة.

وبالرغم من الفجوة التي صارت بينهما منذ ذلك الحين، ودراسة سارة الفلسفة والتحاق أسما بكلية الطب البيطري، وبالرغم من تظاهرهما بنسيان ما حدث بعد عدة سنوات من الجفاء، فضلًا عن أنّ سارة لا تقدّم مُبرّرات في الغالب، فإن علاقتهما لم تغد كالسّابق، كما أن ذلك لم يمنع أسما من إظهار نظرة تشفٍّ وشماتة عقب رؤيتها سارة يمسكها أبوها من شعرها بعد تطليقها من أشرف عندما هربت معه وتزوجته دون علم أسرتها.

لقد كان اختفاء أسما سببًا لتهيُّج ذكرياتهما القديمة، لم تستطع سارة مُطلقًا التخلُّص من حقدها عليها عندما كانت تتعمد الضحك

كلما رأتها مُصادفةً بعد حادثة هروبها مع أشرف، كأنها تريد أن تقول لها: «مَن التي فُضِحت الآن؟».. وظلت طوال تلك السنوات لا ترفض الهواجس التي تعصف برأسها حول ضلوع أسما وتورطها في إفساد زواجها من أشرف وإهانتها من أبيها عندما أعادها مجرورةً من شعرها أمام أهل القرية.

كان ذلك قبل سنواتٍ طويلةٍ، في إحدى ليالي يوليو الرطبة، تسللت من البيت فجرًا، كان القمر شاحبًا، شحيح الضّوء، والسماء من حوله غائمة باهتة، ونسمات الفجر ساخنة انتظرت قدوم أشرف عند أول القرية، لم تكن لتوافق أبدًا أن تتزوج منه إن تقدّم لخطبتها في ملابساتٍ طبيعيةٍ، لكن فسخ خطبتها من محمد حمدي زميلها بالكلية بعد سنتين من الدخول والخرُوج عليها؛ جعل الجميع يتحدثون عن السبب، وتواترت الشّائعات، والتي من الجائز أن تكون أسما روّجت لبعضها كما تظنّ سارة، خُصُوصًا تلك الشائعة التي مفادها أنهما كانا يختليان طويلًا ولساعاتٍ متأخرةٍ من الليل قبل أن يشاهد بعضُ المُتلصّصين خطيبها وهو خارجٌ من بيتها بعد منتصف الليل خائر العزم، يهندم ملابسه، ويمسح شفتيه طويلًا من أثر أحمر الشفاه العالق فيهما. وعلى الرغم من عدم ثبوت ذلك الكلام فإن فسخ خطبتها منه فجأةً وبدون أسبابٍ مُقنعةٍ للجميع؛ كان سببًا لتعزيز تلك الشّائعات في ضمائر أهل القرية.

الغضبُ الذي كان في قلب سارة ولم تطلقه بعدُ كان مدمرًا للغاية، نظرة شباب القرية إليها، وعيونهم التي كانت تأكلُ أنوثتها المُفرطة، ونهمهم في تذوقها، وتصديقهم الشّائعات، دفعها ذلك إلى الانتقام من محمد حمدي، ولكن كيف تنتقم؟

كان سؤالًا يبدو بلا إجابةٍ، حتى ظهر في حياة أسرتها أشرف السمسار الشاب الذي كان دائم التردُّد على والدها في الفترة التي قام والداها فيها ببيع السيارة البيجو وشراء ميكروباص أجرة، ولم تكُن نظرة أبيها إليه تتعدّى كونه عاطلًا يحتالُ لكسب بعض الجنيهات التي ينفقُها مساءً على المقاهي ولعب الكوتشينة، لكنه عرف كيف يوقع سارة في حباله.

في ذلك الفجر الملتهب من يوليو لم يأت أشرف عند أول القرية، وسارة تتلفّت حولها؛ خَشية أن يراها أحدٌ، ولم يكُن الغريب أن السّماء قاتمة في مُنتصف الصيف، بل الغريب أن أشرف الذي وعدها بحياةٍ أكثر تحرُّرًا وانطلاقًا لم يأتِ بعدُ.

أدركت أنها لم تنتقم من محمد حمدي الذي صار مدرسًا للفلسفة، بل انتقمت من ذاتها بتلك الزيجة المريبة من عاطلٍ على حدّ تعبير والدها. بعد قليلٍ، وفي سيارة بيجو 405 كان أشرف بجوار السائق يمزقان صمت الليل بمُحركٍ مُتهالكٍ، سرعان ما قفزت في المقعد الخلفي، واستمرت السيارة تهتك الصّمتَ حتى أيقظت العصافير.

على مقهى ناءٍ بمدينة بلقاس التي تبعُد عن قريتهم بضعة كيلومترات كانا يتناولان إفطارًا هزيلًا كالحياة التي ثُقدم عليها، عدة عيدان من البقسماط وكوب من الشّاي بالحليب، كانا صامتين، وكانت الأفكار التي تقفزُ في ذهن سارة لا تكفُّ عن الأنين، جميع أفكارها وجع، وجميع تساؤلاتها ألم، ربما كان أشرف طامعًا في والدها، وربما أمها تموت من الحسرة، ولكن الوقت لا يعود إلى الوراء، مسحت دمعة من على وجنتها، وقامت تجر ساقيها خلف

أشرف الذي سبقها إلى السيارة البيجو.

وفي مكتب محامٍ كانت تربطه بأشرف بعض المصالح المشتركة كان مأذونٌ ينتظرُهما، وشهد على قسيمة زواجها إلى جانب المحامي سواق البيجو الغريب. وفي غرفة تمتلئ بالبقِّ في إحدى اللوكاندات القريبة من محطة القطار كانت دخلتها في عز الظهر.

ساعة واحدة قضتها أسفل منه وهي مذهولة لا تعلمُ ما الذي يحدثُ، وكيف آل مصيرُها أسفل عاطلٍ حاصل على دبلوم صنايع وبلا عائلة معرُوفة، صحيح أنه لبق، ومُهندم، وملامحه مريحةٌ، لكنها في النهاية ليست مقومات زواج ناجح، زفرة قوية أطلقها عقب رعشته الأخيرة، أعقبها طرقٌ عنيفٌ على باب الغرفة، إنه صوت أبيها وأعمامها.

لم يكُن لديها يقينٌ بمن أخبر أهلها بمكانها، لكن هاجسًا ظل يلازمها طوال تلك السنين أنَّ أسما ربما تكُون وراء ذلك؛ إذ إنَّ أخًا لها صديقٌ لأشرف، وتردد معه أكثر من مرة عند المحامي الذي تزوجت في مكتبه، وربما في إحدى جلسات الأنس التي كانا يتردّدان عليها يشربان الحشيش سقطت من فمه كلمة أو ما شابه، لكن المُحصّلة واحدة؛ اقتادها أبوها من شعرها، وأنزلها على أول القرية مضروبةً وبثيابٍ مُتربة مُتّسخة، وجرجرها حتى وصل إلى بيته مستعرضًا انتقامه لشرفه، بينما أعمامها قيدوا أشرف وكسروا ساقه أثناء مقاومته.

وبعد عدة جلساتٍ عرفية اتفقوا على أن يطلقها، ثم يطلبها من أبيها مرّةً أخرى، وبعد حلقةٍ صامتةٍ من الأهل حول العروسين تزوّجا

ثانيةً، وسافرا بعيدًا إلى الإسكندرية؛ حيث لا يعرفُهما أحدٌ، وليبدآ فصلًا جديدًا من الألم، ويبدو أن ما كان يخطّط له أشرف تبخّر، وعليه البحث عن عمل.

طوال هذه السنوات لم تنس سارة حقدَها على أسما، ولا نظرتها الشّامتة التي انطبعت على وجهها منذ ذلك الحين.

***

الأشجار العتيقة على جانبي الترعة تنوحُ، شعثاء باكية، ذرّات التراب والرمال الكثيفة تسدُّ الحنجرة وتضيقُ الأعين، السماءُ قريبةٌ من الأرض، تكادُ تطبق عليها، وصفير الريح يصمُّ الآذان.

بزيهم الكئيب، صفٌّ طويلٌ من رجال الشرطة يمتدُّ على طول الترعة، كاميراتٌ عملاقة، رجال ونساء من خارج القرية، مذيعة شهيرة بالإثارة والدجل، ومذيع بالوراثة، وآخر بالمصادفة على رأس الإعلام المصري.

لم تدر سارة وقتها، لماذا انقلب العالم في قريتهم؟ لكنها عرفت لاحقًا أن أحد شباب القرية يعمل «بلوجر» أو ما يطلق على صنّاع محتوى صفحات التواصل الاجتماعي ومجانين الترينداتِ لم يُضيّع فرصة البث المباشر والحديث عن جُثث الفتيات المتتالية ولعنة نساء القرية من أجل حصدِ مشاهدات الفضوليين، وفي دقائق اشتعل الإنترنت بعبارات مثل: قرية الغريقات، والقرية الملعونة، وترعة الموت، والجميع يحكون قصة قرية صغيرة تتخلّص من نسائها بالغرق.

رائحة الموت تغمر الجو من جديد، مع ظهور الغواصين مجدّدًا وقد انتشلا جثة جديدة وتم التحفظ عليها، لكن الغرابة الوحيدة هذه المرة أن الجثة كانت لرجل.

عرفت سارة لغز الجثة الأخيرة بعد عدة أيام عندما نزلت إلى الشارع ومرت بين الحواري الضيقة لتصل إلى بيت خالتها لتتناول معها ومع إنجي وجبة الغداء، فالغريق رجلٌ ولن يقبلَ أحدٌ من الأهالي أو الشرطة وسم الرجال أيضًا باللعنة فتوحّدت الجهود حتى وصلوا إلى الجاني، عكس النساء التي لا تحظى قضايا غرقهن بالاهتمام نفسه والتكاتف ربما بفعل تعوّد تلك النوعية من الجرائم من قتل أو اختفاء، فقد تمّت في أماكن عديدة ومتفرقة في الدقهلية مؤخرًا حوادث قتل لفتيات وزوجات بعضها كان في العلن وأمام مرأى الجميع، تصدق سارة أن محافظتهم قد مسّتها لعنةٌ شديدةٌ، لكنها تؤمنُ بشكلٍ أكبر أنّ الفتيات في الريف ومنذ لحظة ميلادهن، بل لنقل إنه من لحظة تعرّف نوع الجنين، تتولد في قلب آبائهن كراهية دفينة، لا يتم التخلص منها أبدًا، رغم كل المحاولات لإخفاء ذلك أو حتى إنكاره، تتجلّى الكراهية في التفضيل الدائم للذكور، لمحاسبة بناتهم على ردّ الفعل؛ إذا سبّك أخوك أو ضربك فهذا حقه لأنه رجل ولأنك عارُه وشرفُه، وهو مسؤولٌ عَنْكِ.

الأخ بسلطته الإلهية لا يخطئ أبدًا حتى وإن كان على خطأ فخطؤه مقبولٌ لأنه رجل ويمارس دوره كرجل.

لكن عليك يا فتاة أن تتحمّلي الإهانة في صبرٍ وصمتٍ، لأنك فتاة، ولا يحق للفتاة أبدًا أن تجاري الرجلَ في غضبه وغُنفه.

وعلى رأي الجدّات «يا مخَلّفة البنات يا شايلة الهم للممات».

وفي الزواج لا يعيبُ الرجل شيئًا ولا حتى جيبه كما في الأمثال القديمة، فله فرصة دائمًا في التحسّن والتغيير، وتلك هي مَهمّة الزوجات، اللائي يعيبهن كل شيء ولا بد من شعورهن الدائم بالامتنان للرجل الذي أزال عنهن لقب العنوسة، وحتى المظاهر المبالغ فيها في تجهيز الفتيات للزواج، والصرف الباذخ في كماليات، ليس حبًا، ولكنه نوعٌ من الاستعراض، وخوفًا من اللوم والاتهام بالفقر والبُخل، ولكن مع كل جنيه يتم دفعه، يصاحبه الآلافُ من اللعنات لخلفة البنات «اللي ما بتجيبش همها».

بينما لو صرف أحدهم كل ما لديه لتجهيز شقة الابن وفرشها، فيعتبر نفسه الرابح، لأنّ كُلّ شيء يبقى في منزله، مجرد دور علوي للولد.

بالعكس إنه ينتظر من بنته أن تسهم في تجهيز أخيها من مالها الخاص إن كانت عاملة، أو من مال زوجها.

وتمتد هذه الكراهية المدفونة حتى الأحفاد، فأبناء الولد هم أحفاد بحق لأنهم يحملون اسم العائلة، أما أبناء البنت فهم غرباء ينتمون إلى عائلة أخرى.

الكراهية حقيقية ومتوغلة وقديمة، قدم التماثيل الفرعونية.

تنهدت بحزن وتابعت السير حتى بدا شارع البحر كئيبًا وحزينًا، كان يسد الطرق إلى بيتها سرادقٌ كبيرٌ، القرية بأكملها حزينة لمقتل عبد الجواد صاحب الجثة الذي ظل في المشرحة لساعاتٍ طويلةٍ،

ولم يدفنه أهله إلا بعدما عثروا على قاتله، القُطب زوج أمه، الذي استدرجه إلى الغيط، ليسهرا في حراسة أجولة الأرز ريثما يحضر إليهم المشتري في الصباح، هناك، غافله، ودق رأسه بحجرٍ كبيرٍ في ضرباتٍ مُتتابعةٍ مجنونة إلى أن لفظ براءته، وفي عُمق الليل، سحبَ جثّتَهُ حتى الترعة، وحشره في الماسورة، ولمّا شاع الخبر؛ خاف وهرب، لكن صديقه الذى اختبأ عنده في مدينة نبروه وشى به؛ خوفًا من السجن. لم ينكر القُطب أنه قتل ابن زوجته الوحيد طعمًا في مالها، فكر أنّ التخلُّص منه سيفتح له أبواب الانفراد بفدادينها وبيتها وزريبتها بما تحويه من ماشيةٍ. يئست سارة وقتها أن ينجح أهل القرية في حل ألغاز جثث فتيات الترعة، فقد انتفض الجميع وبحث هنا وهناك حتى وجد القاتل ولكن عندما كانت الجثة لرجلٍ، أما النساء أو الفتيات الشابات فغرقهم ومقتلهم بالنسبة للأهالي إما ناتج عن اللعنة أو سوء السلوك.

لمّا وصلت سارة؛ وجدت إنجي وخالتها في انتظارها، افترشن الأرض والتففن حول الطبلية، للفسيخ قواعده في الأكل، التهمت سارة وحدها سمكة ونصف السمكة من الحجم الكبير حتى انتفخت معدتها.. «ربما لأنني لم أتناوله منذ فترةٍ بعيدةٍ»، وابتسمت نصف ابتسامة وهي تُقلّب الحضور بعينيها، واستأنفت حديثها وهي تسأل خالتها عن سر الجثث الأخيرة، وبعد أن رمقَت ابنتها إنجي بنصف عين، قالت الخالة وهي تتنهّد: «إنها فِرّةٌ أصابتنا والله، التليفونات والإنترنت أفسدت البنات». تجيل بصرها في ملامح إنجي، وتستدرك: «مقاصيف الرقبة يلقين بأنفسهن في الترعة بعد أن تقع الفاس في الراس»، وتباغتها سارة بسؤالٍ لا إجابة له بدا كصاعقةٍ:

«وهل رأيت بعينك هذا يا خالة؟»، تتلاشى نظرة خالتها في فضاء الغرفة، وتقوم لإعداد الشاي، وبينما هي في غُرفتها؛ راحت سارة في أثرها، وبصوتٍ خفيضٍ أخبرتها خالتها أنّ ما قالته على الغداء كان لتخويف إنجي.. «البنت في سن خطرة، وأنا مرعوبة عليها.. ليست هذه إنجي ابنتي التي كانت تتوهج من قبلُ.. أنت بعيدة من فترة يا سارة ولا تعلمين شيئًا.. سأحكي لك كل شيء منذ البداية، منذ حكاية ظريفة».

ظريفة

قبل عامٍ، لم تكُن العيونُ تهدأ حين تتوجّهُ ظريفة إلى البحر لتنظيف الأواني، في الريف يسمُّون الترعة بحرًا، وظريفة مقتنعة بتلك الحقيقة، تجلس وقد حسرت عباءتها وكشفت ساقيها الملفوفتين، العباءة لا تخفي خصرها النحيل ولا مؤخرتها الرجراجة الشَّهيّة، كما لا تستطيعُ مقاومة فوران نهديها بشلالات الليونة، تتجاهل العيون المُتلصِّصة، وتلك التي تتسلق ساقيها المنفرجتين من الضِّفة الأخرى، تقوم وعلى رأسها برجٌ من الأواني لا تمسكه بيد، وكذا لا يسقط منها. فتيات القرية كنَّ ينفسنَ عليها جسدها ويستكثرنه على فتاةٍ بعقلٍ خفيفٍ مثلها، وفي يوم بينما تحمل برج الأواني؛ قالت لها إحداهن: «ظريفة العبيطة»، وغابت شمس الظهيرة فجأة عند تلك الفتاة؛ إذ سقط البرج، وقفزت عليها ظريفة تشدها من طرحتها، وتكشف شعرها، وتطوف بها القرية وهي تعضُّها وتنشب أظافرها في وجهها ورقبتها، وتبصقُ عليها، وتشتمُها بما هو معلوم وغير معلوم للمارة الذين لم يتدخل منهم أحدٌ، بل لعلهم تمنَّوا استمرار المعركة لمزيدٍ من الحرية في مطالعة الأرداف والنهود المتقافزة، وفي تلك الليلة المشهودة، وبينما غابت عن الليل نجومه، أخبرت والدتها قبل أن تنام أن أسفل بطنها يؤلمها، وأن إبرًا توخزُ فخذيها بصورةٍ مستمرةٍ، كما أن ثدييها بهما ثِقَل، ولمّا سألتها أمها عن الدورة الشهرية؛ أجابت بأنها لا تأتيها منذ فترةٍ. أفلت أمها واستعاذت من خاطرٍ مشؤومٍ جال برأسها.

وعلى الرغم من أن ظريفة قد حرمت من مواصلة التعليم، وجلست

في البيت من دون أن تنهي المرحلة الابتدائية بحجّة فوران جسدها وعقلها الخفيف، فإنها كلما تختلي بنفسها ليلا؛ تتخيل أنها معلمةٌ محبوبةٌ والتلاميذ من حولها؛ فتبتسم وتنام هانئة.

لم تنفع مشروبات القرفة والزنجبيل، ولم يساعد الصعود المتكرّر بالمراتب والأثقال إلى سطح البيت في شيء، ولا الحقنة التي تُؤخذ في الصيدلية لتنظيم الدورة، استسلمت الأم أخيرًا وذهبت بها سرًا إلى طبيبة النساء. تتعجّب ظريفة لحال الدكتورة، طبيبة نساء وتوليد ولم تنجب، وبعد أن طلبت الطبيبة مزيدًا من التحاليل خرجت بها الأم كاسفةً وغراب شؤم يحلق فوق رأسها من دون أن تنبس بكلمةٍ واحدة.

لم تدر أم ظريفة ماذا تفعل وبطن ابنتها يستحيل إلى كرة ويثير النظر، والوصفات الشعبية لا تفلح مرةً تلو أخرى، فكرت أن تخبر إحدى جاراتها من ذوات الخبرة في مثل تلك المواقف، لكنها تراجعت خوفًا من افتضاح الأمر، الفضائح لا تجيد النساء إخفاءها، أخذت ابنتها إلى معمل التحاليل بشربين، من الجيد أن المعمل يبعد عن القرية بمقدار ثلثي ساعة، وأثناء انتظار النتائج تقرر أن تخبر زوجها وليفعل ما يتوجّب عليه. والد ظريفة رجل على باب الله، يكاد يستطيغ إحضار العيش، عمله مع أنفار الخلاطة باليومية هروبٌ يوميٌ، لقد جاء من الصعيد الجواني إلى الدقهلية هربًا من فضيحة أخته التي هربت من زوجها مع رجلٍ آخر، لم يتحمّل نظرات الناس إليه ومطالبات أمه المتكررة بالبحث عنها وقتلها، لكن يبدو أن العار والثأر والفضائح تلاحقه مثل أنفاسه.

التحاليل الأوليّة لم تقُل شيئًا، ولم تفهم الأم كلمة من المعمل، فقط همست في أذن زوجها بكلماتٍ جعلته يسقط على الأرض، ويدخل أيمن، أخو ظريفة الذي يكبرُها بعامين، يشدُّها من شعرها، ينهال عليها ضربًا وسبابًا، ويحبسها في غرفتها إلى منتصف الليل، ولا يزالُ أبوها كمن ضُعِق، لا يملك حِراكًا، ولا يبرح الأرض، يعود أيمن من الخارج بعزُوقه الفائرة ويفتح الباب على ظريفة التي تكوّمت في ركن الغرفة، لم تُجدِ معه توسُلات أمه ولا نظرة الانكسار التي تنحدرُ من عين أبيه، سحبها إلى الخارج والليل يلفُّ القرية، سار بها حتى وصلا إلى الجسر ودفعها إلى الترعة، وهو يعلم أنها لا تعرف العوم، وقف يرقبُها حتى غاصت، وحتى اختفت فقاقيع الهواء.

أهل القرية لم يشهدوا على أيمن أنه قتل أخته، بل أجمعوا على أنها كانت خفيفة العقل ومن الجائز أنها ألقت نفسها في الترعة، الغريب أنه كان يسيرُ بين الناس منتفخ الأوداج عقب الحادث، ولكن تقرير التشريح الخاص بظريفة أثبت أن ورمًا ليفيًا كان ينمو في رحمها، ومن يومها صارت وجوه الذين شهدوا مع أيمن مُسودّة، ولم يملكوا تغيير شهادتهم، بل صار أيمن يتخفّى من عيون أهل القرية كلما أمكنه ذلك.

***

«ومن يومها يا سارة وقد تركت القرية لتحكم الدجّالين والمُشعوذين».. وتقوم الخالة في بعض شئونها بعد أن تركت داخل سارة فتيلًا مُشتعلًا من الأسئلة، واقتربت منها ووعدتها همسًا أنها سترى هذه الليلة شيئًا عجيبًا شرط أن تبيت معها هي وإنجي،

وافقت على مضض وانتظرت.

وبعد منتصف الليل، لم تكن سارة قد راحت في النوم، كانت قلقةً في الفراش كعادتها، كانت في غرفة وحدها، بينما تنام إنجي في غرفةٍ أخرى.

دخلت عليها الخالة وطلبت منها أن تتبعها في هدوء، كانت حالتها مضطربة قليلًا لكنها في غاية الحماسة كما لم ترها هكذا أبدًا، صعدت بها إلى سطح المنزل، كانت ليلة قمرية مضيئة ومع ذلك أشعلت الخالة عددًا من الشموع ووزعتها حول سور السطح، لاحظت سارة أن أغلب المنازل حولهما ينبعث منها ضوء الشُموع والمصابيح الكهربائية وهمهمات نسائية، تقريبا كل المنازل في أعلاها صخبٌ هادئ، تساءلت وتعجّبت، فكان الانتظارُ خيرَ حلٍّ في هذه الحالة.

بعد قليل، في الحقيقة لم تدرك سارة الوقت ومروره بالتحديد فلا هاتفَ معها ولا ساعة يد، وتتبُّع الوقت في الظلام شيء صعب للغاية، لكنه مرّ على رُوحها في خِفةً، سمعت صوت ناي يخرُج من بيوتٍ مُتفرّقة، صوت ضعيف لكنه واضح، ثم انتشرت في الفضاء روائح الفل والمسك، ثم أخذت صرخاتٍ ضعيفة في الظهور والتتابع حتى ارتفعت وتعالت، كانت الخالة تراقب بعينٍ سارة وبالعين الأخرى السلم، خوفًا من صعود إنجي، وللعجب لم تنزعج سارة أبدًا من الصراخ، تماهت معه ودّت لو تصرخ مثلهن، لو تبكي، لكن قلبها الذي مات في مرة سابقة، ما عاد شيء يحييه أو يذيب الدمع المتحجّر بين جفونها، وقرب الفجر نزلت بعض النساء إلى الشارع في اتجاه الترعة يعتمدن على ضوء الشُموع والمصابيح، تبعتهن سارة وخالتها،

لتجدهن قد تخفّفن من العباءات وبقين في قمصان النوم ونزلن إلى الترعة، رغم الظلمة والبرودة والخوف واللعنات، يسبحن إلى منتصف الترعة ويشكّلن بأياديهن المتشابكة دائرةً كاملة يدُرن حول أنفسهن دورة كاملة ثم يصعدن إلى الشط في خفّة الحوريات، والقرية لا وجود لمخلوق في شوارعها إلا أولئك النسوة، ولا حتى الشباب الذي يبيع المخدرات ويظل طوال الليل في الشارع، ولا حتى رجل يذهب ليلًا إلى ري الأرض، ولا حتى الكلاب وقطط الشوارع، كل شيء حولهن صامت كأنه التزام صارم باتفاقٍ مُسبق.

الدهشة والنعاس لم يُمكّنا سارة من مُجادلة خالتها واستجوابها، عادت معها إلى بيتها، كانت إنجي في الاستقبال ويبدو على وجهها أنها تعرف كُلّ شيء لكن لا تشترك فيه، عادت إلى الفراش ونامت نومًا عميقًا لذيذًا.

واستيقظت صباحًا جائعة، تناولت فطورها وقهوتها في نهمٍ، وقبل أن تسأل أخبرتها خالتها أن ما رأته هو طقس اعتادته النساء في القرية منذ مقتل ظريفة، حيث ظهرت الغريقة في مناماتهن جميعًا وأمرتهن بهذا الطقس ووعدتهن أن من تشارك فيه تتخلص من خطاياها وتصبح هي وعائلتها في أمانٍ بعيدًا عن الغرق واللعنة، ولما سألت سارة عن سبب عدم اشتراكها هي أو إنجي، قالت إنها امرأة حجّت إلى بيت الله ثلاث مرات، هل تتبع خطوات الشعوذة والشيطان فهي لم تر ذلك المنام أبدًا وتُشكّك في صحته، أنه انتشر بالإيحاء والوهم، ورغم كل ما تشهده القرية من مثل هذه الطقوس في الليالي الفردية عدا ليالي النصف من الشهر الهجري وعدا الليلة الأولى والأخيرة ورغم حالات الغرق لا تصدق أيًا من الخُرافات وترى

أن ما يحدث هو سوء خلق أو جريمة مدبرة، ودّعتها سارة وعادت بصحبة إنجي إلى بيتها وفي عقلها تشوُّش هائل وأسئلة لا تنتهي.

رغباتٌ مفاجئة

جلست سارة أمام مرآتها لساعاتٍ، أرادت أن تكون شهيةً كما السابق، تكحّلت، ومرّرت الحلوى على جسدها العاري، جعلته يبدو ناعمًا مُتشرّبًا بالحُمرة، تعطّرت بزجاجةٍ مُعتّقةٍ، شعرها منسابٌ في استقامةٍ مُحبّبة حتى أعلى مؤخرتها المرتفعة، ظلت أمام مرآتها عارية، تستديرُ يمينًا ويسارًا، وتدهن جسدَها بزيت الزيتون حتى صارت لامعةً تُؤكل من دون جهد، ارتدت عباءةً قانية تصفُ جسدها بانحناءاته وثنياته، يبدو خصرها نحيلًا بالرغم من ذلك، وبعنقها الطويل تحني رأسها، ما عاد نهداها الصّغيران مصدرًا للخجل، ولا شمرتها اللافتة مصدرًا للقلق، الشّمرة التي طالما هزّت ثقتها بنفسها ودفعتها إلى استخدام كريمات التبييض الرخيصة والغالية، كانت الوحيدة السّمراء بين صديقاتها، أغلبهن ببشرة بيضاء وبعضهن مُلوّنات العين والشّعر، السمات المميزة لنساء الدقهلية بخاصة الريف منها، تتذكّر كم مرةً غضبت لتلوم والدتها على شمرتها رغم أن الأم بيضاء، فكانت تُهدّئها وتعزّز من زوحها وتُخبرها أنها أجمل من الجميع ببشرتها الصافية وطولها الفارع وشَعرها الكثيف، وكانت سارة عندما تود إغاظة أسما التي تصفها دائمًا بالزرقاء نسبة إلى لون بشرتها عندما تغضب فكانت تُردّد كلامًا غبيًا وطفوليًا عن الحملة الفرنسية والمماليك، فتغضب أسما أيضًا حتى شكّت منها إلى مدرس التاريخ الثانوي، فعاتب سارة بلطفٍ وأوضح لها أنّ النساء في مصر لم يختلطن برجال غرباء إلا بشكل شديد الندرة وأنّ العِرقَ المصري عرقٌ نقيٌ وصفاته البيولوجية تغلب على أي عرق آخر، وأحضر لهن في الحصة التالية إحصاءات عديدة عن السلالات المصرية تثبت

معلوماته.

دقّ هاتفها، إنه هو، قطعت الاتصال بسرعة كعلامةٍ مُتفق عليها، هبطت الدرَج بسرعةٍ، وانتظرت قليلًا خلف الباب ترقب الطريق من العين السحرية، لم تنتظر طويلًا، بمجرد أن اقترب من الباب؛ فتحته، وجذبته إلى الداخل في لمح البصر، همّت أن تحتضنه، لكنها تراجعت في اللحظةِ المناسبة، ضمّها إلى صدره، واعتصرها بقوّة، أبعدته عنها، وصعدت به إلى حجرة نومها بحجّة ألا يسمعهما أحدٌ بالخارج.

- هل رآك أحد؟

- لا، لا تقلقي.

- جائع.. لقد أعددت لك عشاءً خفيفًا.

- جائع من يوم فسخ خطبتنا.

الضّوء الخافت في حجرة نومها كان مُناسبًا لحديث الجائعين، تأمّلها كثيرًا، لمس وجهها في رقّةٍ، اقترب منها، لم تبعده هذه المرة، تركته يأكل شفتيها ببطءٍ، لم تعرف كيف أصبحا على السرير عاريين تمامًا، كان يملأ أنفه بروائحها المختلطة، باعدت ساقيها ونزل ماؤه قبل أن يرويها، اعتذر لها بحجّة أن شوقه لها قد غلبه، ابتسمت وهي تقول بصوت مرتعش: «نعوضها في يوم آخر»، وانصرف بسرعةٍ، لم تودعه، ولم تصحبه إلى باب البيت حتى، أطفأت النّور ونامت مفتوحة الساقين إلى الصباح.

في الصباح، قامت وفي نيتها ألا تسمح لإنجي بالنوم في بيت خالتها مرّة أخرى، كانت نادمةً على ما حدث بالأمس، لقد وقعت في

فخاخ محمد حمدي خطيبها السابق مجددًا، لكنها رأت أنها مَن أعطته الفرصة لذلك حين أعطته رقم هاتفها، لم تستطع الثبات أمام إلحاحه المستمر بأن يراها، وأنه نادمٌ منذ تركها، وأنها استغلت فرصة خلو البيت من إنجي حتى تواعدَه سرًا، وظلت هكذا تتجاذبها الأفكار إلى أن دقَّ جرس الباب، ارتدت عباءةً سوداء بسرعة وفتحت الباب، كانت خالتها تسألها عن إنجي التي رأت لها رؤيا سيئة؛ فجاءت للاطمئنان عليها.

ابتلعت سارة تلعثمها وتماسكت أمام خالتها.

- إنجي ذهبت مع إحدى صديقاتها إلى حصة الفيزياء مع مدرس جديد في بسنديلة الجميع يشهد له بالكفاءة وقد نسيت هاتفها كالعادة.

لم تشك الخالة في كلامها، رغم أنَّ الكابوس الذي رأته بالأمس كانت ظلاله القاتمة تسيطر على ملامحها وتهز جسدها كمن تلقَّى علقة موت.

- كابوس فظيع يا سارة، الدُّود يخرج من عيني ابنتي وأنا أصرخ وقد شَلَّتني الصدمة، والغريب أنك كنت تشاهدين كل هذا من دون ردة فعل.

- أعوذ بالله، من الأفضل ألا تحكيه لإنجي أو أي مخلوق آخر.

طلبت من الخالة أن تنام بالداخل قليلًا تعويضًا عن توتُّر الليلة السابقة فلا كوابيس في بيتها إما الأرق أو النوم العميق كالموت، وأخبرتها أنها ستخرج إلى البقالة لشراء بعض الضروريات ثم تعود

لتجهز لها غداءً لذيذًا على الطريقة الإسكندرانية للكبدة والسجق يأكلنه معًا عند عودة إنجي.

لا تعرف سارة مكانًا مُحدّدًا تبحث فيه عن إنجي وفي الوقت نفسه لا تود إثارة الشبهات حول الفتاة ولا قلق خالتها.

كان بيت صديقة مقربة لإنجي أول مكان تقصده، سارة لم تكن ترتاح لتلك الصداقة ولا تحب تلك الفتاة تحديدًا، لكنها تعلم أنها بئر أسرار إنجي، كان الوقت ظهرًا وأغلب الريفيين ينامون في هذا الوقت بحكم صحوهم في ساعات الصباح الأولى عدا قليلٍ منهم ينامون إلى وقتٍ متأخرٍ من النهار مثل فتيات الثانوي اللائي لا يذهبن إلى المدارس، فالمدرسة الثانوية ببسنديلة ترتاح لتغيُّب الطلاب يكفيها فقط حضورهم شهرًا واحدًا في كل فصل دراسي.

البيت كان صامتًا والشمس تضربه من كل جانب، بيت عائلة من دورين لم تجد جرسًا أمامها، لكن الباب كان مواربًا، فتحته وصعدت إلى الدور العلوي حيث شقة أهل الصديقة، تصعد في خجل، فهي تعلم أن تجاوزها الدور الأرضي حيث بيت الجد والجدة من دون استئذان عيبٌ كبيرٌ.

رنت الجرس فخرجت إليها الفتاة، يبدو عليها النعاس وشعرها منكوش وترتدي بيجامة نوم رخيصة، وقد ضاع منها جزءٌ كبيرٌ من جمالها وأناقتها.

- إنجي عندك؟

- لا أراها ولا أي صديقة أخرى منذ خطبتي وتركي المدرسة.

فكرت أن الفتاة تكذب، لكن شكلها المشوش والنعاس لم يتركا مجالًا لتكذبيها، استدارت لتهبط الدرج.

- لا تعرفين مكانها؟

- لا، لم تنم في البيت.

ندمت سارة فورًا على إفشاء السر.

- وفري مجهودك، واسألي عنها «المتر» يحيى.

وقبل أن تُعبِّر سارة عن دهشتها وتطالبها بالمزيد من الإيضاحات، أغلقت الفتاة الباب في وجهها.

هاجس ما داخلها جعلها تُصدِّق، هاتفت يحيى والنفور يعصرها وطلبت منه بإصرارٍ وثقة أن يعيد إنجي إلى المنزل، لم تعطه فرصة للدفاع عن نفسه أو التبرير، وفي هذه اللحظة شعرت بندمٍ عميق لعودتها وتمنَّت ألا تكون جزءًا أبدًا مما يحدث.

بالطبع كانت صدمة سارة دامية، لم تستوعب أن إنجي الرقيقة الصغيرة تتورط في علاقة مشئومة مع رجل يزيد عمره على ضعف عمرها، رغم أنها تذكر فعلًا قبيحًا قد دفعت إليه هي أيضًا مع شابٍ صغيرٍ كان يعمل في محل الكوافير الخاص بها.

تتذكَّر أصابعه القابضة على خصرها، والتي لا تكشف عن عمره الصغير، فارق السنوات العديدة يخدمه، لا تستطيع التململ من قبضته، ولا تجد صوتها لتصرخ، قامته الضئيلة التي لا تصل إلى كتفها، تتمدد وتشل حركتها.

أنفاسه تلسع رقبتها كلما زاد انحناؤها، رائحة ذكورته بكر شهية، تستسلم له أحيانًا بالصّمت وأحيانًا بالأنين.

ولما انتهى منها، رأت يديه الملوثتين، صرخت فيه: «أنت وسخ.. كيف تشوه جسدي بوساختك؟».

يسخر منها وهو يرتدي بنطاله في فظاظة. «المرة المقبلة، سأتحمّم أولًا». وينخرط في ضحكاتٍ مستفزة.

تجري إلى الحمام، تحك جسدها باللوف الخشن والماء الساخن، ولا تتوقف حتى ينزف جلدها دمًا، وقتها تشعر بالراحة وتنسى ما قد حدث.

لكن إنجي كانت جريئة مثلها ودافعت عن علاقتها بيحيى وطمأنتها أنها ما زالت بكرًا، لتتساءل ما الفائدة؟

أحضرت يحيى وطلبت منه الزواج من إنجي، بعد أن تنتهي من دراستها الثانوية، وأنها ستقنع خالتها، وأخذت وعدًا منهما بأن يتوقفا عن المقابلات الخاصة، كانت تعرف أنه وعدٌ لن يلتزما به لكنها كانت مضطرة، فعدا ذلك يعد موافقة منها على تلك العلاقة، هددت إنجي بكشف سرها أمام والدتها وهددت يحيى ببلاغ ضده وشكوى إلى نقابة المحامين واتهامه باغتصاب إنجي وبيع المخدرات لها ولزميلاتها، عندما وصلت إلى هذه النقطة شعرت بالانتصار، فقد بدا الخوف واضحًا على يحيى وعرفت بعد ذلك بتهرُّبه من إنجي وبعده عنها، فالجبن صفة ذكورية بامتياز، لكن في بعض الأحيان كان يساورها القلق بأن هذا الهدوء هو الفخ الذي يسبق العاصفة، وأنّ مصير إنجي يتطابقُ مع مصيرها؛ علاقةٌ معقّدةٌ ومرفوضةٌ، متعة في

الجنس والهروب، وظلام وندم لا يساوي شيئًا في النهاية كأنه الموت من دون دفن.

عُزلةٌ

على الجانب الآخر من الترعة، حيث يقبع بيت سمية صامدًا رغم الفوضى والفزع المنثور في الأرجاء، لم تفزع الخالة تقية ولم تهتز حتى مع انتشار حوادث الغرق والجُثث، وهي بالخوف أولى؛ فلها ابنةٌ مفقودةٌ، لكنها تؤمنُ أن مكرُوهًا من المُحال أن يصيبَ ابنتها؛ لذلك، لم تلحق ولو مرّة بالناس حول الترعة، بل تسرّبت إلى أطراف القرية عند بيت الخالة مسعودة، ووضعت بين يديها مالًا وبعض المشغُولات الذهبية، لكنّ مسعودة تعتذرُ لها؛ إذ إنها تركت فتح المندل وضرب الودع وقراءة الطالع منذ زمن، كما أنّ شيخ المسجد الكبير أخذ عليها عهدًا بذلك، ولا تزالُ تقيةُ تُقسمُ عليها حتى فارت عروقها وازرقّ وجهها، تنصرفُ، لكنها لم تعدم الأمل، وكان حدسها ينبئها أن مسعودة قد توافق غدًا.

لقد كانت مسعودة فيما مضى تمتهنُ فتح المندل أبًا عن جدٍ، إلا أنّ أباها نال شهرةً واسعة تخطّت حدود محافظة الدقهلية إلى الوجه البحري بالكامل، وكانت تقيّة تذكرُه جيدًا حين يستدعيه أبوها إلى منزلهم، كانت تراهُ وهي تتجسّس يأتي بأفعالٍ عجيبة، كأن يُخرج من أسفل فرش الكنبة التي يجلس عليها حشيشًا وأفيونًا، ويجعل قوالب من الطوب تتحرك، أو أنّ كبشًا أسود عظيم القرون يظهرُ فجأةً ويطوف على الجالسين، ثم يختفي. في اليوم التالي، دخلت على مسعودة بعينين ذابلتين ومالٍ وذهبٍ وصوتٍ مُرتعِش، لم تبذل مجهودًا كما كانت تتوقّع، وجدَت مسعودة قد جهّزَت البَخُور وخلافه، وأخبرتها أنها لم توافق على العودة إلى ما كانت عليه إلا لتساعدها

في معرفة أين اختفت سميّة.. «مرة تفوت»، قالتها بابتسامةٍ فاترةٍ لا معنى لها، وطلبت طفلًا لم يبلغ وعلى معرفةٍ بسمية، وفي أقل من خمس دقائق كانت تقية قد اتصلت بابنها أدهم الذي أحضر معه ابن عمه بأعوامه الثمانية، أخرجت مسعودة من صدرها منديلًا أبيض ووضعته على رأس الطفل، وراحت تتمتم بكلماتٍ وهي تعصرُ عينيها، ولا تزالُ تأمرُ الطفل أن يُغمض عينيه هو الآخر ويصفُ ما يراه حتى امتثل، انتفض جسدُه الصغير، وسقط على الأرض، ثم استعاد وعيه سريعًا، أغمض عينيه وفتحهما مرارًا حتّى هدأ جسده واستقر، وبدأ يروي كل ما قد جرى.

«سمية.. توقفي يا سمية» تبدّل صوتُ ابن عمها الطفولي إلى صوت كهل، ولمّا أمرته الخالة مسعودة ألا يتدخل وأن يحكي ما يراه فقط؛ قال: «الوقت بالليل.. يدق الباب.. تخرج سمية إلى الساقية القديمة.. تبكي.. أوقفوها.. سحبوها إلى الترعة.. سمية محبوسة في باطن الأرض.. تبكي».

تنزل تقية إلى المقابر في جوف الليل كما أمرتها الخالة مسعودة، ليلة بعد ليلة، تبولُ فيها، تسرقُ عظامًا وجماجم، تقيم الحضرة والزار، وفي بعض الأوقات جلسات لتحضير الجان، وتنتظر عودة سمية، حتى إنها باعت ثلاثة قراريط من أرضها التي كانت تنتظرُ دخولها زمام المباني، وفي الليلة السابعة، بينما انشغل الحضور بالذكر والطعام؛ فوجئت تقية بطفل يضربُ الباب بشدة ويخبرها أن سمية ظهرت عند الساقية القديمة، هرولت من فورها ووجدت جمعًا من الناس يلتفون حول سمية التي كانت مهلهلة الملابس، فاقدة للنطق، تشيرُ إلى الترعة في ذهولٍ. احتضنتها وهي تبكي وتزغرد

في آن، والتف الجميع حولهما يُقلّبون كفًّا بكفٍّ، يتساءلون بفضول ريفيّ: «أين كانت طوال تلك المدة؟ مَن فعل بها كذا وكذا؟ هل كان محمود؟ أم الجان؟»، وشاع خبر عودتها في دقائق.

لم يخل بيت تقية وخليل القرني من الفضوليات للاطمئنان على سمية، ومعرفة أين كانت طوال تلك المدة، والنساء اللائي كنّ يمصمصن ويبدين الوجع لم يكن هدفهن سوى الفُرجة، تقية تعلم ذلك ولا تملك أمامه دفعًا، كل ما قامت به أنها جعلت سمية بصحبة أختها منى بالطابق العلوي الذي كانت تعدُّه لزواج ابنها أدهم، ولم تشف فضول زائراتها سوى بترديد: «قدّر ولطَف»، وبعد أن انفضت الفضوليات، وسكن البيت، روت سمية لأهلها عن حكايتها مع النذّاهة التي سحرتها، وكانت تطلب منها أن تتبعها إلى الساقية القديمة، وعندما وصلت لم تجدها، كأنها فصّ ملح ذاب، وظهرت أمامها بئر عميقة شحبث إليها من دون مقاومة، ولم تدرِ بنفسها إلا وهي تسقط في باطن الأرض التي انشقت، كانت تسقط بسرعةٍ شديدةٍ وكأن يدًا عملاقةً تحملُها، عرفت بعدها أنها في مملكة الجان، لكنها غيرُ قادرةٍ على وصفها أو الوشاية بأسرارها؛ حتى لا يصيبَها أذى منهم كما أخبروها، ولا يصيب عائلتها مكروهٌ. وبعد عودتها بأيام عرفت القرية كُلّ التفاصيل، لا شيء يختبئ في قرية كوم الديبة، الجميع صدّق حكاية سمية كأنهم كانوا على استعدادٍ لتصديق أي رواية تُبرّر ذلك الغياب، إلا أن سارة وحدها لم تصدق تلك الحكاية الملفّقة، وظلت تتساءل في نفسها: «مَن يُصدّق تلك الأكاذيب والتناقضات؟».

توقفت حوادث الغرق لشهرٍ كاملٍ بعد عودة سمية، وعادت الحياة إلى طبيعتها كأنّ أحدًا لم يغرق أو يختفِ، وفاجأ خليل قرني القرية

بزفاف سمية إلى محمود بعد أن جهّز لهما غرفةً بالطابق الثاني حتى ينصلح حال محمود ويجد لهما بيتًا مناسبًا ولو بالإيجار، لا أحد يجرؤ الآن على مخالفة سمية، ولا أن يحيطها بالأسئلة، وذاع صيتها في كل مكان، وانتشرت مقاطع الفيديو التي تسرد وقائع رحلتها الغامضة، وصارت بعض القنوات تدفع لها مالًا من أجل الظهور في برامجها وذكر ما حدث لها، وعليها أن تزيد حدثًا أو حدثين في كل برنامج من أجل أن يدفعوا لها المزيد، لا يهمُّ مَن يُصدِّق ومَن يُكذِّب، المهم أنها صارت معروفة ولديها شُهرة قد تستثمرها مستقبلًا.

وعادت مسعودة لتقيم حضرةً أسبوعيةً أمام بيتها، يأتي إليها الرجال والنساء من مختلف الأعمار، من داخل كوم الديبة وخارجها، مشايخ الطرق الصوفية وجدوا أماكنهم أيضًا، كل طريقة لها ركنها الخاص ومريدوها، وفي الوسط تبدو مسعودة كملكة استعادت تاجها، تنتقل بين الحشود في هيبةٍ وكرامةٍ لا حدود لها. الناس مقتنعون أن الجان خطف سمية، وأن قريتهم ملعونة، وأن مسعودة امرأةٌ مباركةٌ، وتقدر على صرف الشيطان ولعناته عنهم، وأنها السبب الوحيد في إنقاذ سمية من مملكة الجان عن طريق جلساتها الروحانية وبخورها المسحور، وعملت مسعودة على تغذية تلك الأقاويل عن طريق محسوبيها وأتباعها الذين يحكون كل مرة قصةً غريبةً عن كرامات الحاجة، ويُهدِّدون الناس بأن من يخالف أوامرها، ستغضب وتُطلِق العفريت الذي تحبسه في بيتها ليخطف الرجالَ والأطفالَ فضلًا عن النساء، الغريب في الأمر أنّ رغبةً جامحةً أقوى من الخوف بين أهل القرية كانت وراء دفع مسعودة إلى إقامة طقسها بشكل دوريّ، حتى إنّ أعيانَ القرى كانوا ينفقُون عليها،

وكانت الأشغال تتعطّل في ذلك اليوم.

فاطمة القتّالة

الجلبة تعُود إلى القرية مرةً أخرى بعد توقُّفٍ طويلٍ، صوت فتاة تصرخُ من بعيدٍ، والكل خرج من بيته للفرجة، الفضول أمر وراثي في كوم الديبة، فتاة في الخامسة عشرة يضربها والدها في شوارع القرية بعد أن أمسكها أثناء محاولتها الهرب، يريد أن يزوجها لمسنٍّ ثريٍّ. في الحقيقة إنه ليس مُسنًّا بالكامل، فهو رجلٌ ثريٌّ اعتاد الزواج المتكرر، لا سيما من البكارى الصغيرات، ثم يطلقهن بعد فترةٍ، فهو لا ينجب، ومع ذلك هو كريمٌ للغاية يرغب في إسعاد نفسه أولًا، وصغيراته ثانيًا ثم أهاليهن ولكن كل ذلك لمدةٍ قصيرةٍ، أما عن مصدر ثرائه المفاجئ فهناك رواية واحدة عن قطعة آثار وجدها مدفونةً في أرضه الزراعية.

ولم تثر حوادث الغرق إلا المزيد من التضييق والتنمُّر على النساء، وقد أعاد الناس تداول القصص القديمة، تلك التي تستمد قوتها من خلط الحقيقة بأطياف الخيال والغموض، كل راوٍ لها يستدعي أكبر مخاوفه واضطراباته ليخلطها بالحكاية الشهيرة، ويحصل بعدها على نسخته الخاصة من القصة.

اعتاد أهل كوم الديبة تخويف أطفالهم بقصصهم الشعبية عن العفاريت، كما صار أبو رجل مسلوخة وفاطمة القتّالة من الحكايات التي تخيف الأطفال والكبار أيضًا: فاطمة القتّالة فوق سطح المدرسة؛ فلا يصعد أحد منكم إلى الأعلى، فاطمة القتّالة تتجول ليلًا لتخطف الأطفال؛ فلتذهبوا إلى الفراش مبكرًا، فاطمة القتّالة تقتلُ الفتيات اللائي يتحدثن مع الأولاد، واللائي يبكين عند الختان.

ما يميز تلك الأسطورة أن بطلتها امرأة حقيقية، لديها أطفال وعائلة، لكن لا يعرف ذلك إلا الكبار فقط، فالصغار يكبرون على مهابتها، وعندما يكبرون ويعرفون قصتها؛ لا يقصون لصغارهم إلا الأسطورة المعتادة؛ ليورثوهم رعبًا قديمًا مترسّبًا داخلهم ولا يتلاشى.

فاطمة الزيني الشهيرة بفاطمة القتّالة، امرأة مليحة زوجة محسن بدوي، موظف صغير بالمساحة في الإصلاح الزراعي بدمياط، يركب دراجته إلى بسندیلة ويتركها في محل بقالة لصديقٍ له ويركب بعدها القطار إلى دمياط، يقضي يوم عمله، ثم يركب القطار إلى بسندیلة مرةً أخرى، ثم على دراجته يعود إلى قريته قرب العشاء. كانا يسكنان في بيت قديم لعائلته كان ميراثه الوحيد، مساحته كبيرة تطل على شارعين، مبنيًا من الطين، وقد جعل معظمه زريبة يباشر فيها المواشي التي يتركها أهل القرية في رعايته مقابل حصّة من اللبن أو إيجار شهري، وكان الشارع أعلى من باب البيت؛ فبدا البيت كخرابةٍ أو مغارة كلما تركت فاطمة الباب مفتوحًا.

كانت امرأةً حلوة، ومتينةً، بارزةَ التضاريس، ببشرة بيضاء صافية، وبعينين واسعتين ولوزيّتين، وامرأة كتلك لا يفارقها الإحساس بالوحدة؛ بالنهار رجلها في العمل، وفي الليل ينام مقتولًا من التعب، حتى إنه كان ينام وهو يأكل، وكان لها ولد وبنتان تطلقهم يلعبون خارج البيت طوال اليوم، وفي وقت المغرب يأكلون وينامون كدجاجات الحظيرة، كانت ترى نفسها في وضع لا يليق بفتنتها، لِمَ لا تكون كالسفيرة عزيزة أو كستّ الحسن مثلًا؟ فقرها دفعها إلى حبّ المال بصورةٍ لا تُقاوَم، في يوم أوهمَت زوجها أنها اقترضت

من إحدى جاراتها مالًا اشترت به خزوفًا ونعجتين من أجل تحسين ظروفهم المعيشية، ومع الوقتِ تعدّدت علاقاتها بالغرباء، كان يكفي أن يراها أحدهم وهي تتمايل وراء غنمها هناك في فضاء الحقول البعيدة حتى يفور الدم في عروقه، وبقليلٍ من المال، وبكلمتين من الغزل الريفي المكرور، وربما بدون الكلمتين تشير إليه أن يتبعها، وتلك النوعية من الرجال تجيد التسلُّل إلى الجدران الخلفية في عز الظهر، وتصطدم آهاتها الخفيضة بالجدران الطينية؛ فتذوب عند عتبات البيت. في يوم بينما كان أحد الغرباء يعتليها دخلت عليها فتاةٌ صغيرةٌ ذات سبعة أعوام، دجاجتها قفزت إلى نافذة بيت فاطمة، الفتاة الشقية النحيلة لم تبذل مجهودًا للقفز وراءها من ذلك الشباك الخفيض، لكنّ الآهات وفضول الأطفال الريفيين كشفا الغريب وهو يرتعش فوقها، الفتاة تسمّرت كأنها تنتظر قدرًا، ولمّا انتبهت فاطمة وهي عارية تمامًا؛ صرخت في الغريب الذي اختفى في لمحة عين، وجرت على الفتاة تكتم أنفاسها، الفتاة لم تكُن تصرخُ حتى تكتم أنفاسها، لكنها فعلت، ربما لدقيقتين، وماتت.

ما حدث بعد ذلك ظلّ يُحكى في كوم الديبة كموروث لا يستحبُّ ذكرَه كثيرًا، قطعت فاطمة ساقي الطفلة وذراعيها بالمنجل، ووضعتها في طستٍ كبيرٍ، ووضعت فوقها كومة من التبن، وأشعلتها، لكن الطفلة لم تتحول إلى رماد، ذاب شحمها والتصقت بالطست؛ فأغرقتها بمزيد من التبن وقد انتصف النهار، وخرجت لتجلس أمام بيتها كأنّ شيئًا لم يحدث.

قُبيل المغرب، كانت القرية تبحثُ عن طفلةٍ فقدت دجاجتها، وعندما سألتها إحداهن عنها؛ أبدت دهشةً مستعارةً، وقامت تشاركهم

البحث، تطمئنُ أمّ الفتاة مرّةً، وتبكي مع الباكيات تارةً أخرى، ولمّا عاد محسن بدوي على دراجته حاملًا إرهاقه على كتفيه؛ لاحظ أن عينيها منطفئتان، وتائهتان صوب الظلام الكئيب الذي يخنق غرفة التبن، وبإحساسه الغريزيّ كموظّفٍ عتيقٍ يعلم تلك النظرة جيدًا، كان يراها في عيون زملائه عندما يدهمهم جردٌ مفاجئ، ولمّا اطمأنت أنه استسلم للتعب اليومي؛ دخلت -بلا هدفٍ واضحٍ- تنظر إلى الجسد الصغير المشوي، التفتت؛ فوجدت زوجها يقفُ خلفها بفم مفتوح وعينين جاحظتين، بكت، وادّعت أنّ الطفلة بنت الشياطين كانت تسرقُ الدجاج، وأنها ماتت من الخوف بعد أن صرخت فيها، وبكت، وكان محسن يلتفت خلفه كي يتأكد أنّ أبناءه لم يستيقظ أحدٌ منهم، وطمأنها، وتوقّف بكاؤها فجأةً حين أخبرها أنه سيساعدُها في إخفاء الجثة، لكنّه سيخرجُ أوّلًا لتحسّس الأجواء، وبعد ساعةٍ وجدته قد عاد ومعه ضابط المباحث وكل رجال شرطة بسنديلة، يبدو أنّ أحدهم شاهد غريبًا عاريًا ومذعورًا يخرجُ من بيته، وأخبره.

المؤبد كان نهاية المطاف، ويُقال إنها خرجت قبل أن تقضي نصف المدة بالسجن، وانتشرت شائعة مفادها أن مأمور السجن كان يودعها في الحبس الانفرادي كثيرًا، وأنه كان يزورها في زنزانتها ليلًا، وأنه استأجر لها شقة في دمياط، وساعدها للعمل كفرّاشة في مستشفى، وأنه بعد وفاته تزوّجت من شابٍ يصغرُها بعشرين عامًا، كان مؤمنًا بأن الدّهن في العتاقي، وأنها أنجبت منه فتاة، وقد صارت ثريةً بين يومٍ وليلة.

وكعادة كوم الديبة لا تنتشرُ القصص والشّائعات كما حدثت، البعض يروي أنها كانت تقتلُ الكثير من الأطفال وتشويهم وتأكلهم، والبعض

قال إنها هربت من السجن ولم تخرُج بعفوٍ صحّيٍّ مُزوّر، والبعض يحكي عن صلتها بالجن ومساعدته لها في استخراج الكنوز والآثار، وبعض العجائز يقولون إنّ نساء كوم الديبة فاسقات ملعونات منذ أيام الإنجليز يوم أن كُنّ يرقصنَ مع رحيل اليهودية وأختيها في أكشاك الإنجليز عند شون الغلال، وهكذا بين فترةٍ وأخرى تترسّخ في أذهان الناس أن القرية تسري بها لعنةٌ ما لا تبرحُها أبدًا.

***

الجريمةُ تنتشر كالطّاعون، كأن كوم الديبة تحوّلَت إلى وكرٍ يؤوي الخارجين على القانون، لقد طعن سعيد زوج أمه بائع السمك طعناتٍ متتاليةً في وسط الشوق ظهرًا، والغريب أنّ الناس رأوه بطلًا يأخذُ حقه بذراعه. سناء امرأة حلوة سافر زوجها إلى العراق قبل غزو الكويت، وترك معها أبناءه الثلاثة، وكان يرسل إليهم ما يفيض عن متطلباتهم، لكن رضا السمّاك لم يعتد أن يترك امرأةً وحيدةً في حالها، وسناء كانت ممّن تزوغ أعين الرجال عليها، جميلة، بضّة، بذراعين مثقلتين بالغوايش البندقية، وبعد أن عاد زوجها هاربًا من الحرب؛ أخذت ما تبقّى له من مالٍ وطردته أمام الجيران، الرجل كان بلا عائلةٍ تستطيع الوقوف أمام عائلتها، طلقها واختفى من القرية، وترك لها أبناءه الذكور للمرة الأخيرة، وما كادت العدة تنتهي حتى صارت تحت رضا السمّاك، الذي طلق امرأته بدوره، وبعد أن بنت سناء دارًا كبيرةً؛ أحضر رضا ابنته الوحيدة مها كي تعيش معهم، وصار بين يومٍ وليلةٍ صاحب دكّان للأسماك المملحة بعد أن كان أجيرًا باليومية، ومع مرور الوقت صارت مها تملك جسدًا فائرًا بين ثلاثة ذكور، حملت وأجهضت مرتين، قد يكون حمدي ابن سناء الأوسط

هو الذي اقتحمها في المرتين، لم يجد رضا حلًا سوى إرسالها إلى أهله في قريةٍ مجاورةٍ، وحبس داخله شعورًا غريزيًا بالانتقام الأبوي، مع الوقت علّم حمدي شرب المُخدّرات، ودبّر له فرصة عمل في الأردن عند أحد معارفه، بعد شهرٍ من انقطاع أخباره عرفت سناء أن ابنها قُتِلَ في أرضٍ غريبةٍ، وأصابها خرسٌ من وقتها، وبينما الوقت يمرُّ عليها ثقيلًا؛ اكتشفت أنّ رضا يفجُر بابنها الصغير، واستسلمت إلى الفراش بعد أن طعنه سعيد ولدها الكبير ثأرًا لأخويه ثم دخل السجن.

***

انتبه المسئولون في مركز بلقاس – فجأة - أن الترع بحاجة إلى التطهير من نبات البشنين - ورد النيل - كما هو شائع، ولا مانع من رفع القمامة المُتراكمة على الضِّفاف، وتخليص القاع من بعض الطمي المترسب، حدث يقوم به المركز على فتراتٍ متباعدةٍ لكنه مشهدٌ معتادٌ لأهالي القرية، وكانت الشمس لمّا تنسحب من القرية؛ يتبغها المسئولون والعمّال بكراكاتهم، لكن في تلك المرة تسمّر سائق الكرّاكة لثوانٍ، صاح من بعدها مذعورًا وانطلق في الشّوارع يركضُ كالمجنون، من بعدها سرت شائعةٌ ملأت فضاء القرية عن الجنيّات الثلاث اللائي خرجن له من الترعة وأمرنه بالرحيل وعدم العودة مُجدّدًا.

أصرّ المسئولون في المركز على استئناف العمل في اليوم التالي، وطمأنوا عمال الكراكات أن ذلك السائق قد ساح رأسه من الشّمس، وأن ما حكاه عن جنيات وخلافه ما هو إلا ضربٌ من التوهم، وبعد

شدٌ وجذبٍ بدأ سائقو الكراكات في العمل، واستمروا على ضوء الكشافات الضخمة بعدما حلّ المساء لإنهاء العمل بالترعة، وقد أسهم بعض الفضوليين الذين تجمّعوا حول العمال في طمأنتهم، الأحاديث الجانبية والهمهمات وأكواب الشاي السابحة حولهم جعلت الوضع أكثر ألفة، وبينما يقول أحد الفضوليين لصديقه ضاحكًا: «ما عفريت إلا بني آدم»؛ إذا بسائقي الكراكات يصرخون ويهربون بعيدًا ويردد أحدهم: «الجنيات.. عفاريت.. اللهم احفظنا»، ويذوبون في شوارع القرية، من بعد تلك الواقعة ظلت الترعة لأسبوعٍ كاملٍ تُلقي على ضفافها ثياب نساء وشعرًا وهياكل عظمية وسوادًا وطينًا يسبح في مائها، وتحوّل الرعبُ في قلوب الأهالي إلى وحشٍ يفتك بهم، يتنقلُ في شوارع كوم الديبة وينفذ إلى عقولهم وأرواحهم، واختلطت الحقائق بالخرافات، وصارت الهواجس أساطير وقصصًا غامضة، وسرت الحكايات عن سماع البعض صرخات شيطانية تسبب لهم صممًا مؤقتًا، وعن جنّيّات هجرن الترعة ليسكنّ أسطح البيوت والزرائب والأجران والطواحين، والبعض يقسم أن مياه الترعة تتحول إلى دوامات من الدماء.

نيران آل الدمراوي

تتصاعدُ النيران من بيت آل الدمراوي ليلًا، لا أحد يعرفُ سببها، كل ما هنالك، صرخات من الجيران وجرادل من ماء الترعة تصعدُ وتهبطُ الطوابق الخمسة مرةً أو مرتين كل أسبوع، ويحمدُ الدمراوي الله أنها جاءت سليمة ولم يصب أحد، ثم يجلس أمام البيت، ويحك ذقنه في ذهول.

البيت كبيرٌ جمع فيه أولاده وزوجاتهم وأحفاده، ملحق به زريبة كبيرة، وفناء واسع به ماكينة طحين تعمل طوال النهار. عائلة الدمراوي كبيرة نسبيًا ومعروفة لجميع أهالي القرية، حتى إن البعض يتندّر بأنهم لو ذبحوا خروفًا؛ لأكلوه في يومٍ واحد، يملكون عشرة فدادين ويستأجرون خمسةً أخرى، وتبدو عليهم علامات اليُسر، لكنّ تلك النيران التي تشتعلُ أعلى البيت صارت همّ الدمراوي وشغله الشاغل في الآونة الأخيرة، كلما حاولوا إخمادها ازدادت فورانًا حتى ظنوا أنها النهاية، فتخمدُ وحدها، ولا يملكون تفسيرًا مقنعًا، وما زاد الأمر صعوبةً عليه أنّ الليالي التي لا حرائقَ فيها يستيقظ مفزوعًا في قلب الليل على صرخات أحفاده الذين يروون حكاياتٍ عجيبةً عن مخلوقات مفزعة تنتشر في البيت وتبث فيهم الرعب عن قصد مثل المرأة المنكوشة الشعر التي يشاهدونها تجلس في البيت ليلًا وحولها صغارها حول طستٍ من الماء المغليّ، تغسل فيه الملابس، والحنفيات التي يتساقط منها الماء ليل نهار حتى بعد التأكد من غلقها، وألعاب الأطفال التي تتحرك من مكانها وتتجول في أرجاء البيت طوال الليل، كان الوضع مرعبًا، حتى إنّ بعض أحفاده يظلون

فاقدي الوعي نهارًا كاملًا، ومن وقتٍ إلى آخر يرى ما يشبه الأحجبة والأعمال ملقاة أسفل السلالم أو بجوار ماكينة الطحين أو على عتبة البيت، ولم يجد بُدًّا من إرسال أحد أبنائه إلى الخالة مسعودة؛ كي تنجدهم مما هم مقبلون عليه من سوء طالع.

مسعودة حبه القديم، فتاته التي وعدها بالزواج مهما حدث، والتي وقف في وجه عائلته بسببها، أمه قالت له: «على جُثتي إن تزوجت بنت الدجّال»، بينما أبوه لم يكُن يرى أنّ للفتاة ذنبًا، غير أن حظّها العثر جعلها بنت ذلك الدجّال الذي باع دينه للشيطان، وأنّ أحدًا لا يملك اختيار والديه، الدمراوي وقتها لم يكُن مُهتمًا برفض أعمامه، ولم يعدم الحيلة في محاولات إقناع أمه بزواجه من مسعودة، خُصوصًا أنّ أمه ذات نشأة متواضعة؛ فأبوه قد رآها فتاةً صغيرةً تعمل مع عائلتها في الموالد، تتنقّل بين القرى والعِزب على عربة كارو مع والديها، وتقف على نصبة الشاي والقهوة إلى أن ينفضّ المولد؛ فتبدأ في رحلتها الجديدة، زبائن المولد يتجمّعون حولها ليس من أجل أكواب الشاي وإنما من أجل سواد عينيها، كانتا واسعتين كحيلتين سابحتين في بياضٍ ناصعٍ، أبو الدمراوي كان يتنقّل في الموالد وراءها حتى تزوّجها، لكن الحكاية لم تتكرّر، أمه الآن ترفضُ زواجه من ابنة الدجّال، ولا تتعاطف مع نشأتها المُتواضعة، وفي صباحٍ يتصف بالمرونة وافقت أمه، هكذا من ذون مقدمات؛ طار الدمراوي في شوارع القرية قاصدًا الساقية حيث اعتاد أن يقابل مسعودته هناك، طار حتى إن أحد نعليه سقط منه من دون أن يشعر، وهناك إذ تتلاحق أنفاسه، قال لها: «أمي وافقت»، لم تذهب المفاجأة بعقلها رغم فرحتها الواضحة، اتسعت عيناها وزاد بريقهما وهي تؤكد

له أنّ العمل الذي صنعته بيدها لا يُخطئ أبدًا، ومن ساعتها صار الدمراوي يتهرّب منها بعدما تأكّدت له مقولة أمه أنها «بنت حرام» لم تتوان عن سحر والدته بعملٍ سفلي، فكيف يطمئن لها وينام بين ذراعيها ليلًا، فعاد إليه رشدُه، وَظَلّ ملتزمًا بالصلاة في الجامع الكبير ويقرأ القرآن حتى يُحصّن نفسه وعائلته من شر مسعودة بنت الدجّال، وتزوّج من أول فتاةٍ رشّحتها له أمه، وعاش طوال السنوات الفائتة حياةً هادئةً نسبيًا حتى دهمت الحرائق بيته.

قبل تلك الحرائق بشهرين تعرّف الدمراوي إلى الدكتور عماد عن طريق إبراهيم توكل، الذي مكّنه من دخول القرية عن طريق افتتاح عيادة للعلاج الطبيعي، لكنّ الشُهرةَ التي نالها عماد لم تكُن بسبب مُمارسته الطب في القرية التي لا يعرف سكانها معنى العلاج الطبيعي سوى عند من يجبرون الكُسور ويرضُّون الخلع أو يقومون بالحِجامة مثلًا، بل الشهرة التي سبّبت ذيوعَ صيته في الأنحاء أنه ادّعى العلاج بالطّاقة، وأنه علم درسه بالخارج يستخدم فيه الأعشاب والأحجار الكريمة، وبين يومٍ وليلة صار أهالي القرية يستعينون به قبل شراء البيوت والسيارات ليكشف لهم عن طاقتها قبل شرائها، ممّا جعل الدمراوي يمنحه أذنًا صاغية حين أخبره أن بيوتًا كثيرةً بالقرية تقوم على بحرٍ من الآثار.

الدمراوي رجلٌ معتدل السلوك، مُتديّن منذ أن تهرّب من مسعودة، لا يترك فرضًا في الجامع، بل يعتكفُ في العشر الأواخر من رمضان، وزوجات أولاده يرتدين النقاب، ومُؤشّر الراديو في بيته لا يغادرُ موجة إذاعة القرآن الكريم، لكنه انساق خلف توكل والدكتور عماد حين أقسم له الأخير أن أسفلَ بيته مقبرة فرعونية، «لُقية» كما

يقولون، والدمراوي كسائر الناس لا يتجاهل الكنوزَ خُصوصًا أنه يرقدُ فوقها، وأنها ليست منَ المُحرّمات وفي عشية يومٍ عادي، دخل الدكتور عماد على الدمراوي بصحبة توكل وشيخ غريب عن القرية، ومن وقتها والحرائق في بيته لا تخمدُ حتى تشتعلَ مُجدّدًا.

ردّت مسعودة ابن الدمراوي خائب الرجاء ورفضت مساعدتهم، وقالت له: «بنت الدجّال لا تساعدُ الأندال»، وما أن سمع رسالتها حتى أطرق وهو يقول في نفسه: «الله يرحمك يا أمي». لم يتوقف التنقيبُ عن الآثار لمدة أسبوع كامل، شيوخ وآلات ثقيلة وجلسات لتحضير الأرواح، كل ذلك بإشراف إبراهيم توكل ويحيى المحامي وبمباركة مسعُودة التي تمكّنت من طرد آل الدمراوي خارج القرية بعد أن هدّدَت حبيبها القديم أن بقاءه يعني وفاة أحفاده واحدًا تلو الآخر.

لكن يبدو أن اللعنة التي تركها الدمراوي وراء ظهره قد سقطت على القرية كلها، فكان كلما حفروا أسفل البيت؛ طمعًا في الكنز، وجدوا هياكلَ عظميةً وبقايا شَعرٍ طويلٍ، بل لمّا أكملوا أعمال الحفر في البيوت المجاورة وسط غياب الشرطة؛ لم يجدوا إلا المقابر وبقايا الجثث، كأنّ منازل القرية كلها كانت مقامة على مقبرةٍ جماعيةٍ للنساءِ.

ربما أن القرية لم تكُن تسبخ على مقبرةٍ فرعونية كما هو شائع عنها منذ قديم الأزل، بل كانت تخفي لعنةً أُطلِقَت أخيرًا، لتظل لصيقةً بأهلها وذريتهم إلى آخر الزمان.

لذلك صارت القرية كالجزيرة المعزولة، لا يدخلُها أهالي القرى

المجاورة خوفًا من اللعنة، خصوصًا بعد حادث انقلاب سيارة شرطة على أطرافها، الخوف رافق الجميع، والعُزلة جعلت من كوم الديبة أرضًا خصبة للخرُوج على القانون، وفرصة للتنقيب عن الآثار وتجارة السلاح والمخدرات ووكرًا لحماية المجرمين.

قبل أسابيع من الاختفاء

في زيارتها الأسبوعية إلى بيت والدها، تحدّثت أسما مع أمها عن سلوك شقيقيها السيئ الذي تتحدث عنه القرية، وعن تجارتهما المشبوهة، وبالرغم من أنها في منتصف الثلاثينيات فإن جراحها القديمة لا تزال تتقيح في ذاكرتها، كانت وقتها في الخامسة عشر، لا تزال تتذكّر رجفة أعضائها عندما دهمت الشرطة بيتهم ليلًا، وجرجروا أباها بالكالسون والفانلة الداخلية، كانت أمها تلطم على وجهها، وأخواها؛ بال أحدهما على نفسه بينما الآخر كان مُتسمّرًا لا يتحرك كجذع شجرة، ستة شهور قضاها أبوها في الحبس بتهمة الاتجار في أجهزة منزلية مسروقة كانت كفيلةً بأن تجعلها تتحاشى عيون زميلاتها في المدرسة، واضطرت إلى الوقوف مع والدتها في الدكان من أجل حصد المزيد من الشّماتة والتهكم، لم تفارقها طوال تلك السنين ضحكات صديقاتها الخبيثات، خصوصًا سارة التي كانت تناطحها رأسًا برأس، ظلت لسنوات تُعامَل كفتاةٍ منبوذة.

- الحكومة تعلمُ كُلّ شيء، لن يمر الوقت حتى يُقبَضَ عليهما بالبضاعة المسروقة.

لم يكد أبوها يُنهي كلامه حتى شعرت بالخجل، والفضيحة المؤجّلة، حتمًا ستشبعها حماتها كلامًا مسمّمًا، وسيعيّرها سامح، حياتها الآن توشك أن تنهار تمامًا بسبب أخويها الشقيّين، لقد ورثا عن أبيهما الطموح الزائد بالثروة السريعة.. «لكنّ الغبيّين لم يتعلما من الماضي»، تتوجّه إلى بيتها بجبلٍ يجثمُ على رئتيها، لكنها كانت تفكّر طوال الطريق في مخرجٍ من تلك الورطة، ولم تكد تهتدي إلى

طريق حتى هاتفتها والدتها وهي تبكي، وأخبرتها نبأ القبض على شقيقيها، فلم تجد في ملفات ذاكرتها غير إبراهيم توكل، أخرجت هاتفها دونما تفكيرٍ طويلٍ، وطلبت مقابلته فورًا.

ردّ عليها توكل وطلب منها أن تسبقه إلى بيت عائلته، وظل مكانه مختالًا بينما تتأرجح الذبيحتان المعلّقتان على باب الجمعية الشرعية؛ تتبادل العيون حولها نظرات قلقةً تنتظرُ الحصول على نصيبٍ وافرٍ، يودُّ أحدهم لو غاص بكفّيه في العجلين معًا وطار بهما، لكن إبراهيم توكّل مدير الجمعية الشرعية يقفُ بين العجلين، يوزّعهما كيفما يشاء، دائمًا كان يتحدّث في جلساتِهِ الخاصة مع بعض حاشيته أنه الوحيد الذي يملك المنح والمنع في الجمعية الشرعية.

يبدو وقورًا لمن يشاهده لأول مرة في جلبابه الأبيض الذي حسره إلى مُنتصف سرواله، لحيته التي تذهبُ في كلّ اتجاهٍ، صرامته التي يغلف بها وجهه، لكن أهل القرية يعرفونه جيدًا، الجميع يعرف أمّهُ سمكة، تلك المرأة القوية التي ربّت ولدين وفتاتين بمفردها بعد سفر زوجها إلى لبنان وانقطاع أخباره لسنواتٍ طويلةٍ ولم يكُن قد تجاوز إبراهيم وقتئذٍ عشر سنوات، عملت في كل شيء: خدمة البيوت، وباليومية في الأراضي الزراعية، وبيع الخضار وتجارة الحبوب، ولما نمت بذرة الرجولة في جسد إبراهيم؛ حاول تخفيف العبء عن أمه سمكة، مرةً بالسرقة، وأخرى بالتلصّص على الناس ونقل أسرارهم لمن يدفع، حتى التصقت بتلك العائلة شمعة وضيعة بسببه، وبعد أحد عشر عامًا يعود والده صفرًا كما سافر، وقد ذاع في القرية أن نسوان لبنان قد ضحكن على توكل، وراح يروي قصصًا عن مُغامراته

معهن، ربما كنوعٍ من استثمار حكايات لا يعلم أحد عن صحتها شيئًا.

لم ينقذ إبراهيم من تلك الخيبات الأسرية والشخصية سوى سفره للعمل بالخارج على الرغم من أنه لم يحصل إلا على دبلوم زراعي، عقد عمل حصل عليه بالفهلوة من دون أن يدفعَ مليمًا واحدًا، حتى إن زُمَلاءَ غُربته كانوا يسمونه ابن المحظوظة بعد أن صار أقواهم نفوذًا وحظوةً عند رؤسائه، ويعود بعد ثلاثة أعوامٍ فقط ليلقي الأموال بين قدمي سمكة، ويشتري أرضًا على أطراف القرية يبني عليها دوّارًا كبيرًا، ويُزوّج أختيه، ويفتحُ بقالةً لأخيه الصغير الذي فشل في الدراسة، ويزوّجه من فتاةٍ كالبدر، ويبقى توكل لا شاغلَ لديه إلا أن يقيم سهرته أمام الدوّار كل ليلة جامعًا عاطلي القرية ليحكي لهم كيف أنفق ثروة طائلة على نساء لبنان.

جميع مَن بالقرية كانوا يتساءلون عن طبيعة العمل الذي قام به إبراهيم وحقق له تلك الأموال التي لا آخرَ لها في ثلاث سنوات فقط، وقد ردّد البعض أنه ذكي ولمّاح، بينما البعض الآخر أشاروا من طرفٍ خفيٍّ إلى تاريخه المعروف في السرقة.

كان يسافرُ إلى الخارج، لا يعلمُ أحدٌ إلى أين، يمكث عدة شهور ويعودُ بعدها بمالٍ أكثر ونفوذٍ أوسع حتى ترأس الجمعية الشرعية والتي يديرها إلى الآن حسب هواه ومطامعه، لا يعلمُ أحدٌ أين تذهب التبرُّعات، لكنه لا يغلبُ أبدًا في إقناع الأثرياء بدفع المزيد منها، كما أنه يعمل بالتجارة، يبيع ويشتري أي شيء؛ بضائع مُهرّبة، سلاح، آثار، حتى أنه يتاجرُ في القاصرات.

***

سلّمت عليها الخالة سمكة والدة إبراهيم، وظلت تثرثر في الأحوال والأيام الجميلة التي مضت إلى أن وصل إبراهيم، ابتسامته المصطنعة لا تفارقُ قسماته، إنه يعلم أنّ أسما أو غيرها من أهل كوم الديبة لن يأتوا إليه إلا إن كانوا في ورطة.. «ما أسرعها الأيام» اصطحبها إلى غرفة الجلوس وأغلق الباب لينفرد بها.

في البداية، تركها تتحدث عن سبب مجيئها، وهو يعلم أنّ شقيقيها يقفان الآن حافيين أمام ضابط المباحث، ولمّا انهارت بالبكاء؛ جثم عليها كقط برّيّ ماهر بالقنص.

- لقد ضبطوا المسروقات بالدكان يا أم البنات.

- لكنك تستطيع المساعدة، يا إبراهيم.

- «فرك ذقنه قليلًا» الأمر أكبر مني، للأسف.

- طلباتك.

- «لمعت عيناه وبدت على قسماته ابتسامته المصطنعة» ما أنا إلا واسطة خير.

- بمعنى؟

- سأحاول.. سأحاول.

انصرفت بعد أن أكّدت ضرورة الحل، وأنها مستعدة لفعل أي شيء يحول دون الفضيحة، وأثناء عودتها، توقفت أمام السوبر ماركت كي تبتاع منه بعض البقالة وحلوى للفتيات حتى تبرّر تأخيرها.

كانت ثورة سامح أمرًا متوقّعًا، لكنها لم تظن أن خبر زيارتها إلى

إبراهيم توكل سيصل إليه بتلك السرعة، بيد أنها تعلّمت من عشرتها معه كيف تمتصُ ذلك الغضب، كل ما هنالك أنه سيعتزلها عند والديه عدة ساعات، وربما قضى الليل عندهما، وسيعُود إليها هادئًا مستكينًا، لم يكُن يشغلها هجره لها؛ إذ إنّ هاجسًا دائم الإلحاح عليها أنه سيهجرُها في يومٍ ما، لكن أن يطلقها لعدم إنجابها ولدًا؛ فهذا أمرٌ لا تحتمله كرامتها، كيف ستواجه الشامتات وقد أنجبن الذكور، وعلى الرغم من أنها صارحته بهواجسها في لحظة صفاءٍ؛ فإنه كان يطمئنها وهو يبتسمُ ويقول لها: «يا عبيطة»، ولم تكُن تصدقه أو تطمئن له أو لوالدته، وقد ازدادت هواجسها مع ازدياد نوبات حُزنها وعصبيتها في الفترة الأخيرة، ربما يشعر بالسّأم من الحياة معها.

ظلت تفكر في طريقة تُنهي بها حياتها معه قبل أن ينهيها بضغطٍ من والدته.. «ما الذي يدفعني إلى إفساد حياتي؟ هل أتركه قبل أن يتركني؟ أوه.. الملل.. الملل».

***

يأتي الصباحُ بطيئًا في تلك الأيام التي يهجرُها فيها سامح، ظلت تشغلُ نفسَها بالأعمال المنزلية حتى عودة بناتها من المدرسة، وتتابع قضية أخويها عبر الهاتف مع إبراهيم توكل، ولم تذهب إلى زيارتهما في الحبس، كانت تشعرُ بمزيجٍ من الغضب والشّفقة، لكنها تظلُّ واثقةً من قدرة توكل على احتواء القضية أو إفسادها، ألاعيبه لا تنتهي، وعلاقاته أعقد من أن يتصورها أحد، لقد نجح ذات مرة منذ سنواتٍ بعيدةٍ في إنقاذها من فضيحةٍ محققة عندما كانت تتردّدُ مع سامح ليلًا على بيتٍ مهجورٍ تهدّمت بعض حوائطه، كانت لا تذهبُ

إلى الدرس المسائي كما أوهمت والديها، وحسب الاتفاق المسبق مع حبيبها تلتقيه بشارع خلفي وتسير وراءه حتى يتسلّلا إلى البيت من دون أن يراهما أحدٌ، ويظلّان ساعةً كاملةً يتعرّفان إلى جسديهما. ذات مرة، وهو يتحسّس جسدها؛ دخل رجلٌ مسنٌّ يقضي حاجته، تلصّصا عليه وهما يكتمان أنفاسهما، كان شعاعٌ من ضوء المصباح الخافت بالشّارع مسلّطٌ على قضيب الرجل وهو يتبوّل، همست في أذن سامح وقالت له: «لو كان شابًا؛ لتزوّجته»؛ فقرصها من صدرها؛ فخرجت منها آهةٌ، فزع الرجل على أثرها، وقطع بولته، وفرّ هاربًا حين ظنّهما أشباحًا تسكن الخرابةَ، ضحكت أسما كثيرًا وهي تلتهم شفتي سامح الذي يغار عليها. لكنّ الخُرُوجَ المفاجئ للرجل لفت انتباه بعض الصبية بالقرب من البيت، وعند خرُوجهما، قام الصبية بزفّهما بعباراتٍ مشينة.

كان سامح في جلسات الأنس قد حكى لبعض أصدقائه عن علاقته بها، وحين اختلف معهم مرّةً - فقد اعتادوا اقتراض المال منه دون ردّه - هدّدهم وتعدّى عليهم باللفظ وبعض اللكمات لأحدهم؛ لذلك اتفقوا على الانتقام منه وفضح أمره عند والد أسما، وطار الأمر إلى إبراهيم توكل والذي كان لا يزالُ طالبًا فاشلًا، لكنه لقرابةٍ بعيدةٍ معها اعترض طريقها وأخبرها أنها مراقبة، الغريب أنها لم ترتبك، ابتسمت له كأنه كان يسلم عليها، وتوجّهت إلى الدرس مباشرةً، كأنّ شيئًا لم يكُن. توقفت عن الاختلاء بسامح عدة أشهر بعدها، لكنّهما عادا إلى المجازفة من جديدٍ تحت تأثير العشق والشبق.

***

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى بشّرها توكل ببراءة أخويها، لم تهتم لتعرف كيف تمّ ذلك، المهم أنها ستستطيع أن ترفع رأسها أمام أهل زوجها، وأنهى توكل مُهاتفته لها بأن تستعد لرد الجميل في أي وقت.. «لقد أصبحت مِنّا يا أم البنات»، وأغلق الخط مباشرةً. لم تكترث أو تفكر في كلامه كثيرًا، الرجل نفّذ كما وعد، وأسما كعادتها لا تشعر بالتورُّط، لقد خاضت مُغامراتٍ كثيرة في السابق، كما أن توكل على صلة برجالٍ من ذوي الحظوة والمناصب.. «فليكُن ما يكون».

في المساء، كان شقيقاها في المنزل الذي اكتظ بالمهنئين، وكان توكل يتحرّك بينهم كأنه أحد أفراد العائلة، لم يحضر سامح، ولا والداه، وعندئذ فهمت أسما أنهما وصلا إلى طريقٍ لا عودة منه، وبعد أن احتلّ الظلام حجرات البيت؛ هاتفت سامح والدم يفور في عروقها، ولم يرد على محاولاتها المتكرّرة، لقد بدا منزويًا عنها في الأيام الأخيرة، وكانت تظنّ في بادئ الأمر أنّ قضية أخويها السبب، لكن الآن شعرت بأنّ تغيُّره لسببٍ آخر، وما كاد الصباح يزوِّر القرية حتى عادت إلى البيت، وفي غرفة نومها وجدت حاسوبها المحمول مفتوحًا على حسابات سامح التي تتجسّس عليها، لقد كشف الأمر إذن، «لماذا نسيتْ الحساب مفتوحًا؟».

الساعات التي قضتها في انتظار عودته من العمل كانت ثقيلةً جدًا، لكنه بعد عودته لم يكلمها، وهو ما ارتاحت إليه، يبدو أنه استسلم من أجل البنات. ومع الوقت، ساءت مُعاملته لها أكثر فأكثر، حتى إنه كان يهينها لأتفه سبب، وصار يصفعُها على صدغها، مما اضطّرها أن تأخذ البنات وتذهب إلى بيت أبيها، لكنه لم يعترضها، وأغلق الباب خلفها في هدوءٍ كأنه كان يدفعها إلى تلك النتيجة.

***

- إلا المخدرات يا توكل.

- اطمئني يا أم البنات.. «بابتسامةٍ خبيثةٍ» ما لنا وما المخدرات؟ لقد ذهب عقلك إلى بعيد.

- ماذا تريد إذن؟

- المساعدة.. أريدُ المساعدة.

- في أي شيء؟

- تساعدينا في استخراج الآثار.. خدمة بسيطة.. ويعم الخير على الجميع.

- «تضحك» آثار.. أيُّ آثار؟ أنا أسما يا توكل ولست الشيخة مسعودة.

- لا لا.. لقد فهمتني خطأً من جديد.. مسعودة معنا بالفعل، لكنّك تستطيعين فعل ما لا تستطيعه مسعودة.

- أنا.. وكيف ذلك؟ أتقول ألغازًا؟

- ألغاز.. نعم، وبيت أهل زوجك هو اللغز.. وأنت الحل.

لقد أخبرها توكل بكل شيء، علمت منه أن كوم الديبة تسبح فوق كنوز من المقابر الفرعونية، وأنّ باب إحدى تلك المقابر يقبع أسفل بيت أهل زوجها، وأنهم قد بدأوا في الطريق ولن يمنعهم بشر.

وطمأنها أن دورها ينحصر في إقناع سامح بالموافقة على الحفر

والتنقيب داخل البيت، مقابل حصة من الآثار تقسم بالعدل حسب زعمه، ولكن كيف تفعل ذلك وهي غاضبة ببيت أهلها وعلى وشك الطلاق؟ «لا بد أن أجد طريقةً مناسبةً للعودة إلى البيت من دون أن يرتاب سامح في الأمر، وفي الوقت ذاته أعوذ محافظةً على كرامتي».

لم تكن تصدق كلام توكل، ربما مُجرّد خرافات وأوهام، قد يسوء الوضع أكثر مع سامح، ولن تستطيع دفعًا حياله ساعتها، لكن توكل دعاها وشقيقيها إلى إحدى جلساته مع شيخ مِمّن يُحدّدون أماكن المقابر الفرعونية، كانت الإضاءة شحيحةً، والرجل مريبٌ في هيئته، لا يملك ملامحَ مريحةً، لحيته التي تذهبُ في كل اتجاه كأنه خارج من قبر لتوّه تُزيدُه جفاءً، كانت الجلسة في أحد البيوت التي اشتراها توكل بمساعدة مسعودة، أخرج الشيخ جعرانًا من جرابه، وقرأ تعاويذ كثيرة، بدت أسما بعينين متسعتين وفمٍ فاغرٍ، بينما الشيخ يستأنفُ؛ أخرج ليمونة وقسمها بمديةٍ حادة، وعصر بعضها على الجُعران الذي أخذ يتحرّك ببطءٍ وسط همهمات أسما وشقيقيها، ووقف في ركنٍ بالغرفة، هنا، بدا الشيخ كأنه شيطانٌ يبتسمُ، ووضع علامة على الحائط كأنها رسمة ما. همس توكل بالقرب من أذنها أنّ باب المقبرة أسفل تلك العلامة، وابتسم وهو يقول: «رزقك واسع يا أم البنات.. همتك معنا» وغمز بعينه. وقبل أن تخرج، استوقفها الشيخ، أمسكها من كتفها بقوة، وأعطاها قارورةً صغيرةً أخرجها من جرابه، وأخبرها أن تضعَ منها قطرتين أو ثلاث في عصير تقدمه لسامح؛ وستعود بعده إلى البيت في صحبته مرفوعةَ الرأس كما كانت تريد، وقبل أن تسأل كيف عرف بما يدور في رأسها أخبرها

بأمورٍ كثيرةٍ دارت بينها وبين والدتها بالأمس، كما أبدى إعجابه بالشّامة التي في أعلى فخذها الأيسر، وابتسم، حتى ظهرت ضرْوسه الفضيّة تلمعُ بالرغم من الضوء الشحيح للغرفة، وتجمّدت في مكانها كتمثالٍ. خرجت من تلك الجلسة وكلها يقينٌ بأنّ الأمر حقيقة، وأن الشيخ لا بد أن يكون على علاقة بالجان، إنه يعرفُ أدقَّ تفاصيل جسدها، كما أنه يعلمُ ما دار بينها وبين والدتها كأنه كان يجلس بينهما، مؤكدًا أنّ كُلّ ذلك عن طريق جلب القرين وتجسسه عليها وكشف سترها وستر أهلها أمام الغرباء من إنسٍ وجنٍّ «خيبك الله يا توكل، إلى أي مجهول تدفعني؟».

لكنها أدركت أنّ بناتها السبيل الوحيد إلى عودتها للبيت مُجدّدًا، هن الوحيدات القادرات على استدراج أبيهن، ولم يكُن من العسير أن تجعل ابنتها الصغرى نور تتصل بوالدها وتدّعي أنها مريضة، ولم تمض دقائق حتى كان سامح يشربُ العصيرَ الذي أعدّته، واصطحبها إلى البيت من جديدٍ، وكان يعتذرُ عن إساءته لها، ولم تنس أن تُصوّب عينيها في عيني حماتها قبل أن تخطُو عتبةَ بيتها، وهكذا آمنت بقدرات الشيخ الذي أحضره توكل، وشعرت أن ثروةً مُعلقةً في الهواء على وشك السقوط تحت قدميها، لكن إحساسًا بأنّ هناك مَن يراقبُها ويكشفها عاريةً كان يؤرّقها كثيرًا.. وأحيانًا كانت تُشغّل الراديو على إذاعة القرآن الكريم لتشعرَ بالاطمئنان.

الرَّصَد

ظلّت أسما مستمرةً في مقابلة توكّل في بيت والديها، كانت تدرك أنّ الأسرارَ لا تبقى على حالها طويلًا في قريتهم؛ لذا، أرادت أن تنهي الأمر مع زوجها وثُفاتحه في موضوع التنقيب عن الآثار، وفي إحدى الليالي، اقتربت من سامح وهمست في أذنه طويلًا عن حُبّها له، وشغفها الذي لا يفتر تجاهه، وعن مستقبل البنات، والثروات التي يمنحها الله لمن يشاء، وعن رزق البنات الواسع.. وهكذا، ظلت تثرثر طويلًا وهو يأنس لتلك الثرثرة، ربما كان يفتقدُ مثل ذلك الجانب الحنون من شخصيتها مؤخرًا، لم يسألها ماذا تقصدُ ولا إلى أيّ شيءٍ ترمي، فقط، كان مستسلمًا لهمساتها ومُداعباتها. وبينما كانت تظنُّ أنّ تأثيرَ العصير لا يزالُ فعالًا، ذكرت له ما قاله توكل عن أن بيتهم مبني فوق مقبرةٍ فرعونيةٍ عامرة بالكنوز، ربما أكبر من مقبرة توت عنخ آمون، وأنّه لو أقنع والديه بدخولِ توكل ورجاله للتنقيب؛ لانفتحت لهم طاقة القدر.

كانت تتحدّث بحماسةٍ وعزمٍ كبيرين، لدرجة أنها لم تلحظ تغيُّر وجه سامح، واحتقانه، جذبها من شعرها بقوة وهو يسألها:

- هل ما زلتِ على اتصال بتوكل؟

- إنه يريدُ الصالح لنا.. دع شعري «تصرخ».

- لقد فاتح أبي في ذلك الأمر من قبل، وطردناه.

- لأنكم جُبناء.

- «صفعها بقوة» لن نسمع كلام الحريم وزنُهم.. أتريدين أن يتحول

البيت إلى خراب كبيت الدمراوي؟ إن خرجتِ من عتبة المنزل؛ فلن تدخليه ثانيةً.

تركها ونزل إلى والديه غاضبًا، كانت تشعر بروحها وهي تتكسّر في كل مرةٍ يصفعها، إنها هشّةٌ حدّ الشفقة على بناتها أن يطولهنّ تعنيفه، لقد فسد الأمر ولن تستطيع إقناعه بالتنقيب أسفل البيت، رأسه كالحجر عندما يعند، ولن يتركها توكل قبل أن تُمكّنه من التنقيب في البيت مهما يكُن الثمن، عليها إيجاد طريقة مناسبة للضغط على سامح. وبينما استغرقها التفكير وسرقها الوقت؛ دقّ هاتفها قُبيل الفجر، كان أحد أخويها يخبرها بأن توكل أحضر طفلةً ربما في الثامنة من العمر، وكانت تبكي، وطلب منه أن يضعَها في مخزن البضائع من دون أن يراها أحدٌ إلى مساء اليوم التالي، وأنه لم يتمكّن من الرفض أو طرح الأسئلة، كان توكل يأمره، كما أخبرها أنه يخشى أن يكون بالأمر مصيبة ستحلُّ عليهم قريبًا. ظلت أسما تسبُّ أخاها وتلعن سيرَةَ البطّال الذي أوقعها في متاعب توكل، ولكنها عادت لتطمئنه بأنها ستفهم الموضوع من توكل في الصباح.

***

لم تستطع أن تغلق جفنيها إلى شروق الشمس، ولم تكد توصل بناتها إلى المدرسة حتى توجّهت إلى بيت توكل من فورها، في البداية، كانت تظنُّ أنّ لتوكل نشاطًا شاذًّا نحو الفتيات الصغيرات والأطفال، أو على الأقل يقدمهنّ رشوةً جنسيةً لبعض المسئولين، وربطت بين ذلك وحوادث الاختفاء والغرق التي تشهدها قريتهم مؤخرًا، ولكن لم تفهم لماذا اختار مخزن بضائعهم ليضعَ الطفلة فيه،

قد تموت من البرد والخوف، وعندما وصلت إلى أسفل بيته؛ لم تشأ أن تُحدثَ جلبة، أو تُسمع بشأنها امرأة توكل (السمّاويّة)، أخرجت هاتفها واتصلت به، وبعد عدة محاولات أجابها ولا يزالُ النعاش في صوته وتثاؤباته المتكرّرة، وأخبرها أنه سيفتحُ لها باب المضيفة ويفهمها الأمر.

لم يبد عليه التوتر أو المُفاجأة، رجلٌ بخبرته كان يتوقّع مجيئها، صحيح أنها تكاد تفضحه، لكنه يدرك تورط أسرتها بوجود طفلةٍ غريبةٍ في مخزنهم، وبالتالي يضمنُ حرص أسما على التكتُّم. لم تستطع أن تخفي ذهولها مما سمعت، إنّ الطفلة التي يتحفّظ عليها ما هي إلا أضحية لفتح باب المقبرة.

- اسمعي يا أسما.. إننا لن نسمحَ بأن تضيع علينا تلك الفرصة بسبب خوفك وحُمق زوجك وأهله، أسفل بيتكم مقبرة كبيرة عليها رصد لا يُفتح إلا بدم طفل لم يبلغ، ولا بد أن يكون قريبًا لأحدِنا، هذه أحكامهم، وعلينا السمع والتنفيذ.

- دم طفل، أحكام مَن تلك؟

- الخرّاس والأسياد.. هي أمور لا نفهمها نحن، ولكن المشايخ وسطاء بيننا وبينهم.

- وسطاء!

- وبالمناسبة.. ليست تلك المرة الأولى التي نفعلها.. إنها وصفة ناجحة ومُجرّبة.

- ولكنّني حذّرتُك أن تورطني في أمورٍ مثل المخدرات.. الآن

تورّطني في الدم، أنت مجنون.

- لا تكوني خفيفة يا أم البنات.. فكّري بالثروة والمال والذهب والنفوذ.. أنت على وشك ثروة لا حدود لها.

- بالدم يا توكل! بالدم! لا.. سأذهبُ إلى المخزن وأُخرج تلك الطفلة.. حرام عليك.

- ليكُن في حسابك، إن لم يُفك الرصد بدم تلك الطفلة؛ فعليك بتقديم إحدى بناتك بدلًا عنها.

تصمتُ طويلًا، لقد رأت شررًا يخرجُ من عينيه، لا يكون ذلك تهديدًا أبدًا، إنه يعني كلّ كلمة يقولها، الكلام لن يُجدي نفعًا، كما أنّ إبلاغ الشرطة يعني توريط أخويها مُجدّدًا، وتلك المرة في جناية خطف طفلة، وربما يُضاف إليها هتك عرض، مَن يدري؟ «لقد أحكم الخبيث قبضته على رقبتي».

خرجت أسما من بيته لا ترى الطريق، كأنّ الشمسَ تتخفّى وراء غيمات الشتاء الداكنة، لقد جهّز توكل خطة للسيطرة على زوجها، أعطاها لفافة مخدّرات وغُملة مزيّفة وطلب منه أن تدسّها في دولاب حماها، وبذلك ينتهي دورها، وبعد أن تدهم الشرطة البيت ويقبضون على والد سامح؛ سيتدخّلُ بطرقه المُعتادة لتبديل الأحراز وإخراج الرجل، ولكن بعد مساومة سامح كي يسمح لهم بالتنقيب والبحث عن باب المقبرة، الأمر لن يستغرق عدة أيام، وسيُقبل الدنيا علينا جميعًا، ظلت تسير حتى وصلت إلى الترعة، لا تستطيع السيطرة على ضوضاء أفكارها، إنها تحملُ في يدها سيفًا سوف يُضلّث على رقبة زوجها، ودماء لطفلة لا ذنب لها غير أنّ خالها مجرم أعماه الطمع،

وهي لا شك مجرمة مثله بصمتها وتواطؤها، أكملت سيرها بمحاذاة جسر الترعة، وفي لحظة خاطفة، ومن دون تفكيرٍ في العواقب، ألقت بلفافة المخدرات والعملات المزيفة وسط الترعة.

***

ظلت طوال النهار تفكّر في مخرج من تلك الورطة التي أوقعت نفسها في حبائلها، تنظر إلى صور بناتها وتشفق عليهن من الفضيحة إذا ما قُبِض على أخوالهنّ، وربما تُطلّق وتُطرد، ولن تستطيع المطالبة بحضانتهن، وتحاول أن تُبعد عن ذهنها فكرة تقديم إحداهن أضحيةً لفك الرصد، وظلت على حالها تلك حتى عودة البنات من المدرسة، وفزعت لما أتاها هاجس أن توكل وعصابته من الجائز أن يُقدِم أحدهم

على خطفهن ومساومتها لتنفيذ مخططهم، احتضنتهن وأخذت في البكاء حتى عاد سامح من عمله، لم يجد الغداء مُعدًا، واستغلت الفرصة وصرخت في وجهه حتى أخذ البنات وتركها بمفردها، ولما اطمأنت لنزولهم إلى شقة والديه وقد بدأ الليل يتوخّى خطواته للقرية؛ تسلّلت إلى خارج البيت، كانت الأمطار قد ألجأت الناس إلى بيوتهم، وتسبّبت في انقطاع الكهرباء، وهي الفرصة السانحة لها لتنفيذ ما فكّرت به، لقد دبّرت أن تختفي الأيام القادمة في بيت منة الله، لم تخف من الظلام الذي جثم على شوارع القرية، ولا الطريق الطويل البعيد لبيت منة الله، ورغم ضعف بصرها كانت تسير بخطواتٍ ثابتةٍ، ساعدها في ذلك تردُدها الدائم على بيت صديقتها الوحيدة، لكنها وهي تسير رأت نورَ كشافٍ موجّهًا إليها، وقفت،

ونظرت ناحيته، لكنّها لم تر مَن يحمل الكشّاف بسبب الضوء المسلط على وجهها، ولمّا اقترب حامله منها؛ عرفت أنها سارة شعبان، صديقتها القديمة التي هربت مع أشرف السمسار منذ زمنٍ، والتي سمعت بعودتها منذ أيام، ارتبكت قليلًا، لكنّها أكملت مسيرها نحو بيت منة الله، ولم تلتفت لها خشية أن تتبعها وتعرف وجهتها، وبعد أن وصلت؛ بكت وارتمت في حضن صديقتها التي لم تفهم شيئًا، وظنت أنها تشاجرت مع زوجها وتركت له البيت، أعطتها ملابس لتنام بها بعد أن وعدتها أن تنكر مجيئها إذا سأل أحدٌ عنها، حتى والديها.

لم تكُن أسما على وفاق مع سارة، بل لم تحبها أبدًا، ولم ترتح لرؤيتها منذ قليلٍ في ذلك الظرف الذي تمر به، قد تفسد عليها خطتها وتضعها في ورطةٍ جديدة، كانت دائمًا مصدر المتاعب لها، لا تنسى يوم أن عايرتها بالقبض على أبيها وتهكّمها الدائم عليها، لكنّ الآن، ولسببٍ لا تعرفه، خالجها شعورٌ قويٌ أنّها قد تقف إلى جوارها في تلك المحنة الجديدة، ربما لأنها صارت غريبةً عن القرية وبعيدةً عن ألاعيب توكل وعصابته، وربما لانكسارها بفقد والديها، وظل ذلك الشعور القوي ينمو داخلها إلى الفجر.

***

وما كادت صلاة الفجر توشك على الانتهاء حتى سمعت منة الله طرقًا قويًا على الباب الحديدي للبيت، وبسرعة البرق أخفت أسما في غرفة على سطح البيت تضع فيها الطيور، ووضعت طرحةً على رأسها وشالًا من الصُوف وتصنّعت الفزع وادّعاء النوم، كانت قد رأت

سامح ووالدة أسما من مثلث النافذة قبل أن تُخفي صديقتها، ولما فتحت؛ رأت الجزع يطلُّ من عيني أم أسما وزوجها، وبعد قليلٍ من الحديث حاولت أن ترسم الدهشة على ملامحها لئلا يفطنا لتستُرها على صديقتها، سمحت لأم أسما بالصعود، والتي جالت بعينيها في كل مكانٍ للبحث عن ابنتها، وانصرفت مطأطئة الرأس مع سامح وقد أوشكت الخيبة أن تأكل وجهها.

كان بيت منة الله ملاذًا مناسبًا لاختباء أسما، فالبيت متطرّف عن القرية، يقع وسط الزراعات، وتعيش حماتها ذات الساق المبتورة من السكري وتعاني ألزهايمر أيضًا في الطابق الأرضي، ومنة الله وابنها ذو العامين في الطابق العلوي، ولأن البيت بلا رجلٍ فلا يستطيعُ رجلٌ أن يقتحمه وإلا خرج بفضيحة مجلجلة، لكن والدة أسما كانت تتردّد عليها في اليوم مرّةً ومرتين للسؤال عن ابنتها، بينما سامح يراقبُ البيت من بعيدٍ لأنه يدرك أن أم بناته حتمًا تختبئ هناك، ولم يبلغ الشرطة خوفًا من الفضائح، ولأنه يريدُ أن يعرف لماذا هجرته وتركت بناتها بكل تلك البساطة، إنه يعرفُها جيدًا، إنها تحبُّه ولا يمكنُ أن تكون على علاقةٍ برجلٍ آخر، ربما كان يعاملُها بشيءٍ من القسوة في الفترة الأخيرة، ربما كان اضطرابها النفسي دافعًا لسأمه بعض الوقت، لكنه لا غنى له عنها، ربما رغبة والدته في الزواج عليها لإنجاب ولد سبب في هربها، كل ما كان يأمله أن يجدها، ويربت على كتفها، ويحتضنها، ويقول لها أحبك.

وكلما نما إلى علم أسما حادثة غرق جديدة؛ أشارت بأصابع الاتهام إلى إبراهيم توكل، واللعنة التي خرجت بسببه من باطن الأرض لتأكل الجميع.

ورغم افتقادها لزوجها وبيتها وبناتها فإنّ تلك الحوادث كانت تزيدها إصرارًا على المضي قُدُمًا فيما عزمت عليه من كشف تلك العصابة والتخلُّص من سيفهم الذي وضعوه على رقبتها.

ومع طول الوقت، وتحت سطوة الثرثرة النسائية؛ فاضت بسرها لمنة الله، فقد كان الحِمل ثقيلًا جدًا على قلبها، فضلًا عن أنّ منة الله لم تعدم الحيلة لاستدراج الحقيقة منها، وفي تلك الأثناء كانت منة الله تنقل لها أخبار سارة التي تتواصل معها منذ عودتها لكنها لم تشأ إخبار أسما بذلك في حينها، وأخبرتها عن اهتمامها بمعرفة سبب حوادث الغرق المتكرّرة في القرية، فقرّرت أن تستعين بها بعد أن وقفت على حقيقة مخاوفها وريبتها من توكل.

الهرب

القلق والملل يحاصران سارة في عيادة الطبيب، حاولت تبديدَ مخاوفها وقتل الوقت بمراسلة شقيقها عبر البريد الإلكتروني تارةً، وعبر الواتساب تارةً أخرى، وهي تعلم مسبقًا أنه لن يردّ، كانت تبحث عمّن يدعمها في تلك اللحظة، وعليه أن يكون قريبًا منها، تنظرُ في ساعتها ويكاد الوقتُ يمضي، العيادة مزدحمةٌ بكثافة على الرغم من ثمن الكشف المرتفع، حاولت التخلص من رائحة المرض التي تحيطها ولكن من دون جدوى، جميع العيون التي حولها مشبعة بالضعف والقلق والوهن، هدّأت نفسها، إنها مجرد كور ونتوءات صغيرة أسفل إبطيها وليست دليلًا قاطعًا على إصابتها بالسرطان رغم أن طبيبة النساء التي زارتها أخيرًا حوّلتها إلى طبيب أورام الذي طلب منها العديد من الأشعات والتحاليل، وها هي الآن في انتظار عرض النتائج عليه. لم تمكث أمامه أكثر من عشر دقائق، بعدها لملمت صور الأشعات وتقارير التحاليل وهي منفصلة عن العالم، لا ترى ولا تشعر بأحدٍ، ولا تهتم، فقط تحمل فوق جبينها تاريخًا يأفل، وشارة تفيد بأنها مريضة بسرطان الثدي. من بين ثرثرة الطبيب ونظراته الثلجية لم تلتقط أذناها إلا عبارات قصيرة ومُقتضبة، أصابها صممٌ مؤقت، ربما كفرصةٍ أخيرةٍ للإنكار، تتذكر – عرضًا - حديثه عن انتشار السرطان داخل جسدها ووصوله إلى مرحلة متقدمة، وحتمية استئصال ثديها الأيمن، ثم الخضوع لجلسات العلاج الكيماوي والإشعاعي، وأنه ينبغي عليها التمسّك بنصف أمل؛ حيث احتمالات النجاة أو الموت تتساوى.

حية تمشي في جسدها تعتصره وتنهشه، تتلوّى وتتشنّج، تجاهد أن تخفي وجعها لكنها تفشل وتنهار، تسقط أمام الثلاجة وبين أصابعها غلبة المسكن، تفيق لتجد نفسها في حضن إنجي، تساعدها على النهوض، وتعطيها حبّة من المسكّن كما طلبت، وبعد أن صنعت لها حساءً، وبعد أن ضغطت عليها وحاصرتها؛ اعترفت لها سارة بحقيقة مرضها، تنحدر الدموع من إنجي وهي تردّد: «لعنة نساء القرية أصابتك»، تبتسم سارة، وتتناول حبّةً أخرى من المسكّن، وتغمض عينيها، وتنام.

لم تعد سارة تهتم بحوادث الغرق الغريبة، ولا تراقب سلوك إنجي بقلقٍ، بل صارت إنجي بمثابة أمٍّ لها، لم تخبرا أحدًا من العائلة بما يجري لهما، خبّأتا المرض والقلق، حتى إنهما لم تطلبا استشارة طبية من الدكتور أحمد، وكانت إنجي تؤمن بشفائها وبعودتها أفضل مما كانت، ومنذ أن عرفت سارة مرضها صارت تتماهى في عينيها نظرة أنانية للعالم، ما عادت الفوارق الجسدية والاجتماعية أدواتها للتمييز بين النساء، تذوب في كرسيها الضيق في جلستها المعتادة بالشُرفة، تراقبُ المارين أمامها، تغبطهم على أجسادهم السليمة التي لا تأكلها الأورامُ الخبيثة، أجسادٌ ريفيةٌ ممشوقة وقوية، وتضحك على مشكلاتهم التافهة التي تقلق رُؤوسهم، وبالرغم من أنها تعلم أن حكمها عليهم ظالم، فإنها ظلت تحسدهم على الحياة التي تخلفها أقدامهم كلما داسوا على الأرض.

فكّرت كثيرًا في الانتحار، كان يأتيها كرغبةٍ مفاجئة، يوقظها من النوم، يحدّثها يوميًا، يخبرها أن ليس لديها مالٌ كافٍ للجراحة والعلاج في المستشفيات الخاصة، وأنها لن تتحمّل مرّار الانتظار

في معاهد الأورام الحكومية ومستشفيات الجامعة، ستموت عاجلًا أو بعد وقتٍ قليل، إذن عليها أن تنهي ذلك المصير المأساوي الآن بكامل إرادتها، يخبرها أيضًا أنها لن تتحمّل شكلها بعد سقوط شعرها وحواجبها ورموشها، لكنها كانت - في كلّ مرة - تستعيذُ بالله وتتفل ثلاثًا عن يسارها، تتذكّر ولدها ورغبتها في أن تراه قبل أن تموت، يهادنها الانتحار، وينسحبُ في هدوءٍ. تدخل عليها إنجي بصينية الشاي وطبق البسكويت كما تحبُ في وقت العصاري، تطلب منها مرارًا أن تخبر الدكتور أحمد، أو أن تطلب المساعدة من الخالة مسعودة، لكنها ترفضُ.

في النهاية ترضخُ، وتتمدّد على بلاط الحمام عاريةً تمامًا، تترك مسعودة تقوم بعملها الذي تجيده، ربما تستطيعُ شفاءها.. «ألم تجد الخبيثة مكانًا أفضل من ذلك؟». كانت سارة وحيدةً، لكنها لم تخف، تذكّرت يوم نامت في بيت جدها بمفردها والجميع مستغرقون مع والدتها في المستشفى وهي تضع صغيرَها الثاني، كان البيت مظلمًا، كئيبًا، يومها شعرت بأيادٍ خشنةٍ غليظةٍ تضغطُ على جسدها بقوة، وتجرُها من ساقيها إلى الحمّام، حاولت سارة أن تنشبَ أظافرها اللينة في تلك الأصابع، ولكن من دون فائدة، لم تشعُر إلا بنصفها السفلي عاريًا وتلك الأيادي تُباعد بين ساقيها، الظلام الكثيف لم يكُن طبيعيًا، هناك ما يعيق عينيها عن الكشف، حاولت الصراخ لكنّها أخفقت أيضًا، ووجع عظيم غيّبها عن الوعي، ولمّا أفاقَت؛ وجدت نفسها على فراش جدتها، والنساء من حولها يضحكن ويتسامرن كأنّ شيئًا لم يكُن، أمها الوحيدة التي كانت تبكي بحرقةٍ وهي تحملُ قطعة لحم حمراء عمرها ساعات تتدلّى على ذراعها، عرفت سارة

فيما بعدُ أنها تعرّضت للختان، كانت في السابعة وقتئذٍ ولم تدرك ما يعني ذلك، لكن الزمن علّمها أنهم قد استأصلوا شعورًا إنسانيًا متدفقًا، وخمرةً كانت بوجنتيها.

وافقت أن تترك جسدَها لمسعودة، لم تتحمّل الوجع، ولا تملك المالَ اللازمَ للجراحات والعلاجات اللاحقة، ولا تملك رفاهية انتظار دورها بالمستشفيات الحكومية، وبالرغم من ذلك فهي عزيزة النفس، لا تمدُّ يدَها لأحدٍ، ولا لأخيها الذي نسيها تمامًا كما نسي القرية منذ عدة أعوام، كانت تبحث عن أخباره التي انقطعت وهي في غُربتها، لم تكُن تبحثُ عنه طلبًا لميراثها الذي أكله عشية موت أبيها بحجّة أن الفتيات في الريف لا ترث طينًا، وإنما كانت تبحث عن رائحة أبيها وذكرياتٍ قديمةٍ سقطت منها في رحلتها، لم تكن «الملاليم» التي أخذتها عوضًا عن طين أرض أبيها ثمنًا لائقًا بالتنازل عن الذكريات؛ لذا، ظلت تتبع أي أمل للوصول إليه، لكنها تنتبه وهي تتذكر أنّ البيت الذي يؤويها الآن في كوم الديبة قد تنازلت عنه فيما تنازلت، حتى تلك «الملاليم» لم تأخذها كلها دفعةً واحدةً، بل على أقساط سنوية لم تتقاضَ منها سوى قسطين.. «البيث لا ترثه النساء.. ولا يُعوّضنَ عنه بمالٍ.. هو لك مفتوح إن طلقك أشرف.. غير ذلك لا شيء لك». تتذكر تلك الكلمات التي لم ينتظر قولها إلى أن تبرد جثة أبيها في قبره، تتذكّر وهي تحمدُ الله أنه هاجر وترك البيت، وإلا كانت ستبقى في غرفتها القديمة ككائنٍ منبوذٍ لا عمل لديها إلا خدمة أخيها وأبنائِهِ، هذا هو المعتاد في تلك البقاع الخضراء المترامية.

- اشربي من الكوز يا سارة.

أعادها صوت إنجي الحنون إلى الواقع، رأت في المياه ما يشبه العفن، وكانت رائحته كريهة؛ فكتمت أنفاسها وكرعته دفعةً واحدةً، وغابت عن الوعي.

***

سكان كوم الديبة ليسوا ضعاف الذاكرة، ولكن الأحداث الجديدة هي التي تطفو على ألسنتهم، لم ينسوا حكاية شمية، كل ما هنالك أنهم يخزنونها إلى وقت اللزوم، لكن سمية انتبهت إلى نفسها فجأة، لتجد أنها خسرت دراستها وطموحها في حياة أفضل، ترى زميلاتها في طريقهن اليومي إلى الجامعة بينما تخدم المواشي في الزريبة نهارًا، وتنتظر محمود الذي يعود مسطولًا ليلًا، اكتشفت أنها لم تعد تراه حلمًا أو حبيبًا، مجرد فقاعة خدعتها بألوانها الزائفة، عاطل في الثلاثين من عمره بلا مستقبلٍ واضح، استنزف كل الأموال التي قبضتها للظهور في البرامج التلفزيونية كي تحكي عن مملكة الجن التي تقبغ أسفل القرية، وصارت معه عبئًا جديدًا على والدها خليل القرني، وفي يوم فاتحت أباها أنها تريد استئناف دراستها، لكنه أشاح بوجهه وأخذ يرشفُ من كوب الشاي الذي بيده، بعد تردُّد لجأت إلى إنجي وسارة، أخبرتهما أنها تريد عملًا من البيت؛ فاقترحتا عليها أن تعمل مندوبةً لمستحضرات التجميل، فسجلت نفسها في إحدى الشركات وصارت تعرض كتالوجات الشركة على صديقاتها القدامى وعلى الجيران، كما سعت إلى استئناف دراستها من المنزل، لكن خلافاتها مع محمود لا تنتهي، كان يستولي على عمولاتها الزهيدة من أجل جلسات الحشيش اليومية، ومع الوقت زهدت الدراسة والعمل، وكانت تنتظر حدثًا يغير حياتها إلى الأفضل حتى إن كان بواسطة

مسعودة كالمرة السابقة.

منى شقيقتها عادت إلى زوجها رغم الأسى والقهر، رأت أن الهروب من لقب مطلقة في مجتمعٍ ضيقٍ كالذي تعيش فيه مرضودة من الجميع أفضل لها من الهروب من زوجها، بخاصة أنه لن يطلقها من الأساس، لكنها ظلت تبحث لنفسها عن مخرجٍ من ذلك المجتمع الضيق.

***

تسير سارة صوب موقف الميكروباص، ظُهرًا، كان الشارعُ خاليًا من المارّة والسيارات إلا ما ندر، وقفت في المنتصف، ترفع رأسها للسّماء، وبحركتها المُعتادة تحاولُ حجبَ قُرص الشّمس بكفِّ يدها، عيناها تؤلمانها ووجهها يتصبب عرقًا، نظراتها هائمة، وكفها يتأرجح كمن يحاول اللهاث خلف الشمس.

لا تعرف مبررًا لكراهيتها للشّمس والنور والإضاءة كلها، تقضي الصيف كله هربًا من الشّمس أو في محاولة بائسة لاصطيادها وحبسها، تدركُ أنّ الشّمس هي الأم الكبرى التى لا يقدر عليها أحدٌ.

ومع أنها كانت تذهب مع عائلتها إلى المصيف كل عام، لم يمنعها ذلك من أن تكره الصيف والحر والشاطئ والزحام، تكره الأجساد المتلاصقة والغري المشوّه، رائحة الرجال وصراخ الأطفال والباعة وتكره أيضًا طعم الحلوى.

تراقب بعينيها الكوبري الخشبي العتيق الرابط بين جانبي الترعة، ومواسير الصرف بعفنها الأخضر، وأكوام القمامة التي تقبض العين،

ونبات البشنين الجاثم على الماء، وتذكّرت الغريقات اللائي سقطن في الترعة كما يغلق البشنين أوراق زهرته على النحل ويمتصّه في هدوء قاتل متسلسل، ظلت تنتظرُ بمفردها داخل الميكروباص المتجه إلى المنصورة لأكثر من نصف الساعة، الناس لا يتحركون خارج القرية عادة في صباح الجمعة، اضطرت إلى استئجار سيارة بيجو لكي تلحق بموعد وصول قطار صديقتها وشريكتها السابقة في الكوافير التي ستقضي عندها يومين ومعها خبر مهم عن ابنها، انتظرت كثيرًا على رصيف المحطة.. «القطارات أيضًا لا تصلُ في موعدها باستثناء قطار القَدَر». وذابت بداية ابتسامة على شفتيها باتجاه الفضاء، هاتف عزّة مغلق، وعند وصول القطار لم تهبط منه مثل بقية المسافرين، انتظرت حتى ركب المسافرون الجُدد، وصعدت إلى القطار تبحثُ عنها، «ربما كنت نائمةً يا عزّة كعادتك». وبينما تمر بين العربات؛ وجدت سمية تنزوي على مقعد يتوسط العربة وهي تحتضن حقيبة جلدية متوسطة، باغتتها:

- سمية.

- سارة، كيف عرفتِ؟ أكيد أن الملعونة مسعودة أخبرتكِ.

تعرف سارة ما تمر به سمية الآن، وكيف أنها وجلة؛ فقد اختبرت تلك المشاعر منذ زمنٍ حين هربت مع أشرف، ولكن الخائبة متزوجة من محمود، فلماذا تهرب بمفردها الآن؟

أخبرتها أنها راحلةٌ بلا عودة، وكيف أنها نادمة على زواجها من محمود، وأنها صارت خادمةً له ولأهلها، حتى ما تنتظره المرأة من زوجها ليلًا صار غير قادر عليه، الحشيش جعله مهزومًا كريه

الأنفاس، بأسنانٍ متساقطةٍ. حاولت سارة أن تثنيها عن المجهول الذي تنطلقُ إليه، وحدّثتها عن كلماتٍ مثل الضياع والندم وخلافه، لكنّ القطارَ بدأ في التحرّك، حاولت سحبها بالقوة، لكن سمية دفعتها في اللحظة الأخيرة؛ حتى كادت سارة تسقط على الرصيف والقطار يتحرك ببطء.

- وفّري نصائحك لابنة خالتك إنجي التي عادت إلى الإدمان وتنام كل ليلة مع صاحبك يحيى المحامي.

نزلت الكلمات على مسامعها كشلالٍ من الثلج، ما عادت تستطيعُ الاتزان، لقد فضحت إنجي، والخوف أن يصل ذلك إلى خالتها، لن تغفر لها، ستتهمها بالتدليس والتآمر.

صداع نصفي معتاد يدقُّ رأسها بعنفٍ، صارت تجر ثديها الفاسد وتبتعد عن رصيف القطار، توجهت إلى كافيه أم كلثوم المجاور للمحطة، طلبت فنجانًا من القهوة، وتناولت حبّةً من شريط المُسكّن. عادت إلى بيتها مكسورةً، تغمض عينيها عن العالم في استسلام للقدر.

دقّ هاتفها.. إنّها صديقتُها، اعتذرت لها عن عدم حضورها اليوم، ابنها تعب بشدة واضطرت أن تجري له جراحة عاجلة في المستشفى، وطمأنتها أنه الآن أفضل بعد استئصال اللوزتين، لكنه يحتاج إلى رعايتها الأيام القادمة، ثم أخبرتها أنها سترسل إليها فيديو منتشرًا على اليوتيوب يجب عليها أن تشاهده، فتحت سارة رابط الفيديو ووجدت أن ابنها تحوّل إلى مطرب مهرجانات.

***

انخرطت سارة في غزلة أكبر؛ فلم تستطع استكمال جلسات علاجها بمعهد أورام جامعة المنصورة الذي حوّلها إليه طبيبها؛ إذ لم تجد بُدًّا من الانتظار في طابورٍ طويلٍ من الألم، لكن الانتظار ذاته صار رفاهيةً لها الآن، ولم تُفاتح إنجي في علاقتها بيحيى المحامي ثانية أو تخبرها عن رؤيتها سمية قبل الهروب، وليس في زوحها طاقة تستنزفها في مواجهةٍ جديدةٍ، خُصوصًا أن أهل سمية لم يظهروا جزعًا من اختفائها كالمرة السابقة، بل راح محمود ينشر شائعة أن ملك الجن استدعاها ثانيةً، ربما أراد من ذلك جني المزيد من أموال الفضائيات والتيك توك حال ظهورها ثانية، وللمرة الأولى في حياتها تُفضِّل سارة الصّمت والسلام، فإنها ظلت تتابعُ إنجي من بعيدٍ بقدر ما سمحت لها الظروف، وكانت كثيرًا ما تحول دفة ثرثرتهما الليلية إلى الحديث عن يحيى، لكن إنجي لم تبد اهتمامًا ملحوظًا، ولم تضطرب أو ترتبك من ذكر اسمه، وعلى الرغم من فشلها في التواصل مع ابنها الذي صار مطرب مهرجانات فإنها ظلت تتابعه بقلبٍ يضطرب بين الخوف والاشتياق، تنتظر اللحظة السانحة للقائه، لكن مرضها لا يمنحها المزيد من الوقت، انتكست فجأةً ولم تجد سوى إنجي التي ترعاها رعايةً كاملةً، وقام يحيى بزيارتها بصحبة إبراهيم توكل مدير الجمعية الشرعية الذي بشّرها بأن الجمعية ستتكفل بنفقات الجراحة عند أشهر أطباء الأورام بالمنصورة، وأن الدكتور أحمد سيمرُّ عليها صباح الغد لاصطحابها إلى المستشفى حتى تتجهز ليوم إجراء العملية، وافقت على مضضٍ؛ إذ إنها لا تريدُ شيئًا من تلك الجمعية المشبوهة، ولا تريد أن تنخرط في علاقة شكرٍ وثناءٍ مع توكل ويحيى وبقية موظفي الجمعية

التي كانت تراهم لصوصًا محترفين يستولون على أموال التبرُّعات ويسخرونها لخدمة الجماعات المتطرفة، ولكن ما باليد حيلة، الوجع دفعها إلى الموافقة، كما أن رغبتها في قليل من العمر حتى تلتقي ثانية بابنها، وأملًا ما لاح في الأفق، جعلاها أمام خيارٍ وحيد.

نزع ثدي

تحسّست سارة الفراغ الذي تشكّل مكان ثديها الأيمن، الألم الصارم يمحو بقايا الحزن العالق في أوردتها، وخيوط الندم المتشابكة حول عنقها وثنايا روحها المُرهقة، لم تسأل الطبيب عن حالها، أو تتعجّل نتائج فحص السرطان وانتشاره، رغم وعيها المنقوص فإنها كانت تشعر بالراحة والتحسُّن.

تتعجّب من قوة ونفوذ إبراهيم توكل، الصبي الذي أحبّها قديمًا، ولم تره أكثر من كونه إبراهيم ابن الست سمكة الطيبة التي تساعد والدتها في أعباء المنزل. بين كل غفوةٍ وإفاقة تشعر بأنفاس والديها تملأ الغرفة، صوت أمها، ولمسة حانية من أبيها، فتطلب منهما المغفرة، وبمجرد أن تفتح عينيها؛ تتبخّر أنفاسهما وتنزوي مشاعرها إلى ركنٍ سحيقٍ من الألم، لكن صورة واحدة أمام ناظريها لا تتبخر في صحوها ونومها، هي صورة زياد ابنها. وتمنّت لو كانت أسما بجانبها الآن؛ لتخبرها ببقية حكاية الفتاة التي خرجت مطرودةً وضائعةً من بيت أهلها وبلدتها، ستخبرها عن أشرف الذي لم تعرفه، الرجل الذي تزوجته لتنتقمَ من نفسها، من المؤكد أنها ثَكِنٌ لنفسها كراهيةً شديدةً دفعتها إلى كل تصرفاتها الطائشة، الفترات الطويلة التي تقضيها في غرفتها جعلتها تنزلق في دوائر الذاكرة، وتستسلم لذكريات أيام زواجِها من أشرف، فبعد أن دبّر لها سكنًا متواضعًا في العجمي على أطراف الإسكندرية أخبرها أنه لن يجد عملًا بسهولة، فلا أحد هنا يعرفه. باعت بعض مشغولاتها الذهبية ودفعتها إليه كي يعمل بالتجارة، كأن يفتتح دكانًا للبقالة أو بوتيكًا للملابس، وبالرغم

من انخفاض المستوى المعيشي لسكان المنطقة، فإن الفقراء يأكلون ويلبسون أيضًا.

كان ينزل من أول النهار إلى آخره، ويظلُّ يشكو لها من غلاء الإيجار، وتعنُّت أصحاب الدكاكين، وسوء الأحوال، حتى أنفق المال في الطعام والشراب، وعند طبيب النساء؛ فقد حملت في ابنها زياد منذ ليلتها الأولى. باعت آخر ما تبقّى في يدها من مشغولاتها الذهبية، باعت حتى ساعتها الأتوماتيك، ووضعت حملها في مستشفى الشاطبي الجامعي، إنها المرة الأولى التي تدخل فيها مستشفى جامعيًا، ووسط آلام المخاض والحاجة لم تسعد برؤيةِ طفلها، ولم تتعلّق به في شهوره الأولى، وزادت النفقات مما اضطر أشرف للعمل بالنقاشة وأعمال المعمار بمدينة برج العرب، كان يمكث هناك طوال الأسبوع إلا مساء الخميس الذي يعود فيه إليها حاملًا كيسًا من الخبز وورقة بمائتي جنيه يلقيها في حجرها، ويغادرها صباح السبت بعد مضاجعةٍ منهوكةٍ في مساء الجمعة.

لم تخف من وحدتها مع رضيعها في شقةٍ صغيرةٍ بمدينةٍ غريبةٍ، كما لم تشعر بالغيرة على أشرف، ولا برغبة جسدها تجاهه، خوفها الوحيد كان من الحاجة عند نفاد المائتي جنيه قبل عودته الأسبوعية، ومن مرض مفاجئ يدهم ابنها وما تبقى لديها من مال. حاولت التواصل مع والديها ولكن من دون جدوى، لم يريدا السّماع لها أو تقبّل اعتذارها، بل لم يريدا معرفة أخبارها وأحوالها أو رؤية حفيدهما، ومع مرور الأيام توطدت علاقتها بجارةٍ لها أرادت مساعدتها بعد أن رقّت لحالها، دفعت إليها بأطفالها المُشاغبين كي تعطيهم دروسًا خصوصيةً، مع الوقتِ، زاد عدد التلاميذ حتى

شغلوا وحدتها، وفي آخر الشهر تسرّبوا واحدًا تلو الآخر قبل دفع المصاريف، وتذرّعت أمهاتهم بتراجع مستوى الأولاد، إلا أطفال جارتها وولدين آخرين ظلوا يترددون على دروسها. ومع مرور الوقت التحقت للعمل بصالةٍ رياضيةٍ كموظفة استقبال، ساعدها حسن مظهرها وقوامها الرشيق على القبول كمسوغين للوظيفة، ولم تخبر أشرف بتلك الوظيفة؛ فقد كانت إجازتها الأسبوعية توافق إجازته التي يقضيها معها، واضطرت أن تترك ابنها مع جارتها أثناء وقت العمل مقابل ألا تأخذ أجر الدروس الخصوصية منها، ولما تقاضت راتبها الأول أخبرت زوجها في مشاعر تختلط بالفرح والخوف، لكنه على غير توقعها لم يغضب على خروجها للعمل من دون إذنه، واكتفى بمقاسمتها نصف راتبها، وتقاعسه عن ترك المائتي جنيه الأسبوعية لها، لكنه ظلّ محافظًا على كيس الخبز الذي يحضره معه.

ظلت لعامين كاملين تقتسم راتبها معه، وتوطدت علاقتها بالمتردّدات على الصالة الرياضية اللائي كنّ يعطينها الهدايا والبقشيش بمناسبة وبدون مناسبة، ومع الوقت لم تجد حرجًا في قبول البقشيش، بل راحت تقنع نفسها أنّ الأمر عادي في تلك الحياة الجديدة التي اختارتها بإرادةٍ حُرة منفردة، واستطاعت أن تدخر مبلغًا استأجرت به دكانًا مع عزة زميلتها في العمل وأقامت مشروعها الخاص وحلمًا قديمًا لها منذ وطئت الإسكندرية، عزة التي كانت تجيد تصفيف الشعر وتزيين العرائس صارت تتعامل مع الزبونات، بينما سارة تفرغت لإدارة المشروع الذي عُلّقت على واجهته لافتة «الملكة بيوتي سنتر»، ومع مرور الوقت اكتسب السنتر سمعةً طيبةً وتردّدت عليه نساء الحيّ، حتى إنها أهدت ابنها هاتفًا محمولًا في

عيد ميلاده الخامس، لكنّ أشرف أخذه منه بعد أن تعطّل هاتفه، وهو ما جعلها تذهب بهاتفه إلى محل الصيانة حتى تصلحه له، وفي ليلة تتصف بالملل المسائي المعتاد، تفحّصت هاتف أشرف؛ لتجد فيه صورًا له مع سيدة سمراء في أوضاعٍ حميميةٍ، السيدة كانت تبدو في الخمسين، ومع مزيد من الفحص وجدت رسائل بينهما عرفت منها أنه تزوّجها، وأنه كان يقضي في بيتها طوال المدة السابقة، وأنه لا يعملُ، ولم تبد ألمًا تجاه معرفتها الجديدة، بل كأنها شعرت بأن جبلًا انزاح عن صدرها، واجهته، لم ينكر، وبرّر ذلك بحاجته إلى المال كي ينفق عليها وعلى ولدهما، وكانت لا تنظرُ إليه وهو يحدثها؛ فقلبها الذي مات منذ هروبها من بيت أبيها لم يطلب الثأر أو الثورة، لم يحزن، ولم يتفاجأ، بالفعل لم يكن ينفق عليهما منذ بدأت مشروعها الخاص، بل كان يستنزفها على الدوامِ، كل ما هنالك أنها صمتت.

ارتاحت لفكرة بقائه عند سيدته الخمسينية، لم تره بعدها إلا يومًا أو يومين في الشهر، وفي أحد المساءات المملة طلبت منه الطلاق، حاول ضربها مرارًا بعد ذلك، ونصحتها عزة أن ترفع ضده دعوى خلع؛ فهي على كل حال لن تنال منه مليمًا واحدًا، لكنها لم تفعل، فكّرت أنّ أحدًا لن يرحب بها في قريتها كهاربةٍ قديمةٍ ومطلقة تجرُّ خلفها طفلًا، كما أنّها لن تستطيعَ الحياة كمطلقةٍ في مدينةٍ غريبة، قالت لعزة: «ظل رجل ولا ظل حائط» كجُملة كانت تسمع أمها تردّدها كثيرًا لمن جاءت تشكو زوجها، كأنها تحاول ألا تقطعَ كل الصلات مع قريتها، وانتظرت أن تتحسّن الأمور من تلقاء نفسها.

***

لم تتخلّص سارة من هوسها بنجوم السينما في أرض غربتها، حدث أن سمعت عن تصوير فيلم جديد لنجمها المُفضّل ماجد صبري بالقرب من سنتر التجميل بالعجمي، كانت تصطحب معها عزة كل يوم لمشاهدة التصوير قبل فتح السنتر، وفي إحدى المرات، تمكّنت من الوصول إلى ماجد صبري لالتقاط صورة تذكارية، تحدّثت معه بعدها لعدة دقائق انتهت بتبادل أرقام الهاتف.

لقد مرّت عدة سنوات نسيت فيها كونها امرأة غضّة مرغوبة، لكن تلك السنوات لم تفقدها بريقها الريفيّ، بريق الجنس الريفي، الجنس الحقيقي الذي لا تجيده إلا الريفيات، ولم تمسس جسدها اللين ولا شعرها الخيليّ الكثيفَ ولا عينيها الواسعتين. تنبّهَت عزة لتوترها بعد أن سألتها عما دار بينهما من حديث دونًا عن بقية المعجبات، ونصحتها أن تبعد الخيالات الساذجة عنها؛ فنجوم السينما معروفون بعلاقاتهم العابرة.

عادت إلى شقتها بحيويةٍ غير معتادة في تلك الليلة، لعبت كثيرًا مع زياد، وحمّمته، وأعدّت له عشاءً يحبه، وتركته ينام على صدرها قبل أن تتسحّب إلى الخارج، أمسكَت هاتفها واتّصلت بماجد، لكنّ هاتفه كان مغلقًا، نامت بخيبة الظنّ، لكنّها كانت تحلم كمن يستمتع.

في الصباح، لم تذهب إلى موقع التصوير، وتحجّجت لشريكتها أنّ الاهتمام بالعمل أولى، وأنّ يوم الخميس دائمًا يكُون شاقًّا، وبالفعلِ مارسَت يومها بخاطرٍ مشغولٍ وبقلبٍ مضطرب. ولمّا خلَت بقلبها في المساء؛ عاودَت الاتصال به مُجدّدًا، وحاولَت، ثمّ حاولَت إلى الفجر، بلا فائدة، وفي الصباح استيقظت على دقة هاتفها، لم تصدق حين

طالعت اسمه على شاشة الهاتف، وظلّت لثلاثة أيام لا تنامُ إلا على صوته.

في صباح يتّصف باللهفة، تركت ابنها عند جارتِها، وتوجّهت إلى شقةٍ تطلُّ على البحر في كليوباترا، ودونما كلام كثير كانت عارية في أحضان ماجد صبري وعلى فراشه، كانت المرة الأولى التي ضاجعها رجلٌ كأنها أميرته، ولما غادرت حلمها وعادت إلى شقتها بالعجمي؛ ظلت تمرّر يدها على جسدها كما كان يفعلُ، لكنّ هاتفه ظلّ مُغلقًا بعد ذلك اليوم إلى الأبدِ، كما عرفت فيما بعد أنّ شقة كليوباترا للإيجار اليومي. واختفى ماجد صبري وانطفأت داخلها جذوة ما كادت تشتعل.

باشرت عملها بسحر الوقت والتعوُّد، وعادت كما كانت كأمٍّ ترعى ولدها الذي صار كلّ حياتها، ومع قليل من الوقت طلقها أشرف بعد أن تنازلت عن حقوقها، ولم تكد تنتهي عدتها حتى صادفَت رجلًا يكبرها بعشرين عامًا، أرمل ثريًا، يعيش بمفرده بعد زواج ابنته الوحيدة، كان صريحًا بما يكفي لطلب يدها بعد أول لقاء، تردّدت في البداية، ومع مزيدٍ من تعهداته برعاية ابنها وتأمين مستقبلها وموافقته على استئناف مشروعها، وافقت، استأجر لها شقة تطلُّ على ميدان سيدي جابر، وأهداها شبكةً قيمة، وتعهد بالتكفل بمصاريف ولدها كاملة، وعندما تسللت إلى نفسها مخاوف أن يساومها طليقها على حضانة زياد؛ طمأنتها عزة بأنه لم يسأل عنهما بعد الطلاق ولم يحاول رؤيته، وهكذا دخلت حياةً جديدةً ومستقرةً وعادية، قضت أيام زواجها الأولى في مرسى مطروح بعد أن تركت لعزة مهمة الاعتناء بزياد، وكان الحاج سيد زعيتر زوجها رجلًا

حسن المُعاشرة، ودودًا، عاملها وابنها بلطف، حتى كان يوم لم يعد فيه زياد مع باص الحضانة، وبعد العديد من الاتصالات علمت أن أشرف أخذه أثناء اليوم الدراسي، ساعدها الحاج سيد في البحث عنه وتحرير محضر في قسم الدخيلة، ولكن من دون فائدة، لقد ذاب أشرف بالولد، بعد فترةٍ من البحث علمت أنه هرب بالولدِ مع سيدته الخمسينية إلى ليبيا، ولم تفلح المساعي كافة في استرجاع ابنها، وتحوّلَت حياتها إلى كدر مقيم.

طلّقها الحاج سيد بعد أن ألحّت، تركت له الشقة، وكان نبيلًا أن ترك لها مبلغًا من المال ولم يأخذ ذهبها، وقال لها إنه ينتظرها إن عدلت عن قرارها، وزهدت الحياة تمامًا بعد أن استأجرت شقة بجوار السنتر، بل صفت الشراكة بينها وبين عزة، ووضعت المال الذي أعطاه لها الحاج سيد مع ما ادخرته مع ثمن شبكتها كوديعةٍ في البنك تنفق من ريعها الشهري، وتعتبرُه أمانةً ومالًا يخصُ ولدها ولن تبدّدَهُ أبدًا مهما يكن احتياجها إلى المال، إنه ميراثه منها، وراحت تتلمس أخبار أبويها في كوم الديبة من خالتها وإنجي، حتى عرفت منها أنهما ماتا في موسم الحج ودفنا بالبقيع، زادها الأمر غُزلةً وانكماشًا، كانت تبكي كثيرًا في الليل، وتنام وهي تحتضن صورةً لزياد كان يضحك لها فيها، طالت غُزلتها حتى دقّ هاتفها برقمٍ غريبٍ، من دولة غريبة، في البداية ظنت أنّ أشرف يتصلُ من ليبيا وأنه سيعيدُ إليها ابنها، لكنّه كان شقيقيها، لم يطمئن عليها ولم يسأل عن أحوالها، فقط أخبرها بالذهاب إلى محاميه ببلقاس لتسوية أمر الميراث، لا تعرف إن كانت قد فقدت الوعي لعدة أيام بعد عودتها من عند المحامي وتنازلها عن حقها في بيت أبيها، وقبولها ببعض من

الملاليم نظير الطين، أم أنّ ذاكرتها أصابها العطب، لكنها لا تزالُ تذكرُ تلك المُكالمة الصارمة التي أرغمتها على تسوية مُجحفة للميراث. وظلت في وحدتها وبحثها عن أخبار ابنها زياد لسنوات أخرى في الإسكندرية، تقتاتُ على الريع الزهيد لوديعتها، وبعض الذكريات التي استحالت ضُداعًا مزمنًا، يشبه الصُداع الحالي أثناء استغراقها في الألم على سريرٍ أبيض بمستشفى خاص بالمنصورة، بثدي وحيد.

***

لم تحزن سارة على شعرها المُتساقط، ولا على جسدها الذي تحوّل إلى طيفٍ مُنهكٍ مستسلم، ولا على ثديها الفارغ وحشو القطن الذي تعبّئه في فراغ السُوتيان. كان حزنها الوحيد على عدم قدرتها على إشباع رغبتها في رؤية ابنها زياد، حتى حصلت على عُنوانه أخيرًا بمساعدة صديقتها والتي حصلت عليه بقليلٍ من الحيلة عن طريق أحد منظمي حفلات المهرجانات، لقد صار زياد بين يومٍ وليلة أحد مطربي المهرجانات وهو لا يزال طفلًا لم يتجاوز العاشرة، وانتقل إلى السكن مع أبيه أشرف وامرأته الخمسينية إلى إحدى فيلات التجمُّع الخامس بعد عودتهم من ليبيا، وقد عزمت سارة على أن تسافر إليه عقب جلسة الكيماوي لكنّ الوهن ألجأها للفراش ثلاثة أيام، في صبيحة اليوم الذي التأمت فيه مفاصلها توجّهت إلى موقف طلخا وركبت الميكروباص، ظلت تشاهد فيديوهات ابنها على شاشة هاتفها طوال الطريق.. «لكم صرت كبيرًا يا حبيبي»، وتنحدر من عينيها الجاحظتين بفعل الكيماوي دموعٌ مُرّة.

لم يكن العنوان صعبًا، لكن حركتها البطيئة كانت تشعل الوقت

بالمسافات، واستقبلتها زوجة أشرف في أدبٍ محايدٍ، الفيلا بدت بيئة رائعة لابنها، حياة أفضل لطالما تمنّت أن تحياها معه، لم تكُن تمعن النظر في تفاصيلها بقدر ما كانت تبحث عن زياد أو صورة معلقة له تستطيعُ اصطحابها معها، حتى وقعت عيناها على صورة كبيرة له وهو يحتضن زوجة أبيه وقد ظهرت ضروسهما من السعادة، كانت لحظتها كمن سقط في بئر، بدت زوجة أشرف أصغر من الصور القديمة التي شاهدتها على هاتفه، كما كانت أكثر توؤدًا، ويبدو أن ابنها صارت له حياة من الجائز أنه لا يرغبُ في تغييرها، وعندما رآها.. وعندما احتوتها عيناه؛ لم ينكرها، كما أنه لم يبتسم أيضًا، احتضنته، وبكت.

لم تكن تعرف سببًا محدّدًا للبكاء، هل بسبب شوقها إلى أنفاس زياد؟ أم لتململه من رخاوة عظامها بالرغم من قسوة تشبثها به؟ أم لمرضها الذي يسرقها ببطءٍ؟ مسحت دموعها والمخاط الذي سال من منخريها وحاولت مُمازحته، كان ينظر إليها بالنظرة المُحايدة ذاتها لزوجة أبيه، وفي تلك اللحظة، وفي تلك الدهشة شعرت سارة أنّها فقدته للمرة الثانية، وربما للأبد، وفي مناورةٍ أخيرةٍ صارحته بمرضها، وأنها قد تموث قريبًا، لكنّه لم يفهم، بدا كعود حطبٍ رطبٍ لا يشتعلُ لحالها، تركته بعد أن أخذت معه صورة كمعجبة من معجباته.. «أيُّها القمر، كيف تُطفئني بنظرتك؟»، ورحلَت بخطواتٍ أشد وهنًا، ويا للغرابةِ، كانت تشعر بالخِفّةِ أيضًا.

***

عادت إلى كوم الديبة ولم تكترث للمساء كما في السابق، وكان

بيتها مظلمًا كمنزلٍ مهجورٍ، بحثت عن إنجي ولم تجدها، كما أنها لم تهاتفها طوال اليوم في سفرها، لقد أخذها الألم والبُعد عن زياد لدرجة أنها لم تعُد تهتم بإنجي، على الرغم من أنها الوحيدة التي كانت بجانبها دائمًا وهي في المستشفى، قلقها البالغ دفعها إلى ترك الوهن جانبًا، عادت تفتّش البيت بحثًا عنها، في كل ركن، وخلف المقاعد، بين الظلال، حتى إنها كانت تنظر أسفل الأسرّةِ، تنادي عليها وتنتظرُ أن تجيبها، في الشرفات، في شقُوق الحوائط، حتى صعدت على السّطح؛ وجدتها متكورة بجوار السور، كأنها عادت جنينًا مرةً أخرى، وكانت تئنُّ، وتبكي. انطلقت سارة إليها، واحتضنتها، لم تكُن تنتظرُ ألمًا جديدًا في المساء، لكن هذا ما حدث.

بكثيرٍ من الجهد أعدّت سارة عصيرًا وقدّمته لإنجي، كانت عطشى، كرعته على دفعتين، أنينها الذي هدأ منحها فرصةً للبوح، كانت شاردةَ الذهن نوعًا ما، لكنّها اعترفت لها وللمرة الأولى عن قصّتها الخاصة، كل فردٍ منا له قصّة حزينة، تعصرُ قلبه كل ليلة، يعتقد أنه قادرٌ في وقتٍ ما على التشافي منها، لكن الحقيقة إنه فقط يتجاوزها من دون علاجٍ حقيقي، حكت عن علاقتها بيحيى المحامي، منذ اللحظات الأولى وكيف دأب على مُطاردتها مُنذ وقتٍ طويلٍ يسبقُ التحقيقات في حادثة اختفاء شمية، أخبرتها كيف أنها أحبّته، وكيف عاهدته ألا تخبر أحدًا بعلاقتهما، حتى كشفتها المُصادفة أمام سمية عندما رأتها تتردّد على مكتبه في أوقاتٍ غريبةٍ، وقد ساومتهما على فضح أمرهما، مما اضطر يحيى لتدبير عمل لها بالقاهرة وإعطائها مالًا؛ لتهرب من دون فضائح، ووعدها بتطليقها من محمود في أقرب وقت.

كانت سارة تستمعُ إليها بأذنين خفيضتين، وبحسرةٍ عميقةٍ، وفي انتظار ما هو أفدح باغتتها إنجي باعترافها الأخير أنها تورطت معه في زواج عرفي، بل كان يجلب لها المخدرات في ساعات الأُنس، وكان يهذي معها في أمورٍ كثيرة، لكنّ أكثرها خطورة أنه يعمل مع إبراهيم توكل ويدبّج له دفاتر جمع التبرعات، ويساعده في تزويرها وفي اختلاسها مقابل عمولات يتقاضاها، وليس ذلك وحسب، بل يساعده في أعمال البحث عن الآثار والحفر أسفل بيوت أهل القرية، ويقوم بدور الوسيط مع تجار الآثار لتصريف ما يستخرجونه. ولمّا سألتها سارة: «لماذا تبكين الآن؟»؛ أخبرتها أنه سيطر على عقل والدتها، وأقنعها بمعاونة توكّل أنها من الموعودين بالكنز «اللقية» وأخذها عند أكثر من دجّال ليقولوا لها الحديث نفسه، حتى صدّقت وسمحت لهم بالحفر خارج البيت، على اعتبار أنها تحفر بئرًا للسمك، وأنها مستعدة للنزول إلى باطن الأرض في مقابل الحصول على الكنز، ولقد زاد تبجُّحه حتى طلب منها ملاطفة رجلين من تجار الآثار المُتردّدين على بيت عائلتها، وأنها صرخت وجرت تفتح الباب وطردت الجميع بعد أن أدركت الموقف، ولكنه إدراكٌ تأخّر كثيرًا.

كل ذلك يحدث في فترة مرض سارة وحجزها بالمستشفى.

ودّت سارة لو تقتلها، لو تنشب أظافرها في عنقها وتقتلعه، لكنها سقطت في حضنها وبكت، كان العالم يدوز حولها، وجه زياد وهو يحتضن زوجة أبيه، أشرف وهو يُحرّضها على الهرب، الطبيب وهو ساهم بعد أن استأصل ثديها، وجوه الغريقات، أقراص المُسكّن عقب كل جلسة كيماوي، إبراهيم توكل وهو يبتسم لها ابتسامته الصفراء، الوهن الذي يأكلها كل مساء، كل ذلك شحنها بغضبٍ تجاه توكل

ويحيى وعصابتهما.

في الصباح، تدثرت بغضبها، وتوجّهت إلى مكتب يحيى قبل ذهابه إلى المحكمة، انهالت عليه بالصفعات، وهددته بفضح أمره إن لم يبتعد عن إنجي وبيت خالتها، ثم عادت إلى البيت في إعياءٍ بالغ، وسقطت على الأرض قبل أن تُبدّلَ ملابسها.

الخروج

دبّرت أسما خطّة للذهاب إلى بيت سارة من دون أن يراها أحد، خُصوصًا بعد أن وصل خبر اختفائها إلى الشُرطة، التي وجّهت اتهامًا صريحًا ضد زوجها بقتلها، وكان الأمرُ بسيطًا للغاية، ارتدت نقابًا وجلبابًا من ملابس منة الله، ولأنها في مثل حجمها تقريبًا؛ فسيظن مَن يراها تخرج من البيت أنها منة الله، وهكذا سارت في شوارع القرية حتى وصلت إلى بيت سارة في عز الظهر، فتحت لها إنجي الباب؛ فدفعتها برفق إلى الداخل وقالت لها وهي تكشف وجهها: «أين سارة؟»، ولما صعدت إلى الغرفة؛ كانت سارة تتمدّد على فراشها، شاحبةً، لقد فقدت بهاءَها القديم، وسرعان ما ارتمت في حضنها تبكي بحُرقة، لقد بكت طويلًا، وأبكتهما معها، لم تنطق بكلمةٍ واحدةٍ حتى ابتدرتها سارة:

- حمدًا لله على أنك بخير.. لقد رأيتك ليلتها ولكنني كنتُ خائفة على إنجي لأنها كانت مريضة.

- سلامتك يا سارة.. يا صاحبتي اللدود «وابتسمتا».

- ربما أدين لك باعتذارٍ عن الماضي.. كنا لا نزال مراهقاتٍ بعقول أطفال.

- أنا مَن تعتذر لك يا حبيبتي.

كانتا تتحدثان بشوقٍ، وعقب كل جملة تبكيان، أخذت كل واحدة تحكي عن حياتها في الفترة السابقة، كأنهما تبثّان آلامهما إلى بعضيهما، كانت للعرثرة آثارٌ مريحة لكلتيهما، حكت سارة عن زواجها

الذي انهار كأنه عمارة من دون أساس، وعن ابنها الذي صارت غريبةً عنه، وعن فجوةٍ خلّفتها الجراحة في صدرها، وعن شرخ في قلبها لما آلت إليه أحوال القرية، وعن خوفها على إنجي، كما بادلتها أسما عن توجُّسها مع توكل، وعن سلوك أخويها الذي عرقل حياتها، وعن أزماتها النفسية التي تُدخلها في نوبات اكتئابٍ، وعن حياتها مع سامح التي تحوّلت إلى أشواكٍ، وخوفٍ، وترقُّب للانهيار، وعن شفقتها على بناتها من مصير مجهول.

كانت إنجي تتابعهما في توتُّرٍ، وتعلم أنها صارت جُزءًا من تلك الأحداث العجيبة، لكنها لم تشتبك معهما في الثرثرة إلا قليلًا، ومع الوقت ربطت سارة الأحداث ببعضها، وذكرت أن تلك العصابة لا بد أن تكون سببًا فيما يحدث سواء بتنقيبها عن الآثار باستخدام التعاويذ السحرية الشيطانية التي جلبت إليهن اللعنات، أو بتدبيرها الجرائم بشكلٍ مباشر لأنهم المستفيد الأول من عُزلة القرية حتى تكون مرتعًا لهم، وبينما كنّ يسترسلن في الكلام دقّ جرس الباب، لقد كان سامح، الذي رأى أسما تخرج من بيت منة الله، إنه يعلم مشيتها، وخطوتها، حتى لو أخفى النقاب عينيها، اليقين الذي بداخله جعله يترصّد خروجها كل تلك الأيام، وفوجئت أسما بطلب سارة من إنجي أن تفتح الباب له.

هبطت سارة إلى الدور الأرضي ببطء، تساعدها أسما على النزول والحركة، ولما دخل سامح؛ اندفعت أسما إليه، واحتضنها، لكن غضبه ووجود سارة وإنجي لم يمنعه من تعنيفها، ثم عاد إلى احتضانها، وسمع منهنّ الحكاية وهو مستغرقٌ في ذهوله، وأصرت أسما أن يعود إلى البيت وألا يخبر أحدًا بمكانها حتى تتمكن من الإيقاع بتوكّل

وعصابته قبل أن يدبر لها ولأسرتها شرًا جديدًا، وبصعوبة رضخ لرغبتها بعد أن وعدته ألا تفعل شيئًا قبل استشارته، وفي المساء، عادت إلى بيت منة الله، وبداخلها طاقة جديدة للخلاص.

***

لطالما شعرت سارة أنّ مصيرًا مشتركًا جمع بينها وبين أسما، لم تكُن تدري أنّ ذلك المصير سيجمع معهما كلّ نساء القرية، وبالرغم من المحاولات المستمرة لم تفلح إحداهما في معرفة السبب الحقيقي وراء كل حالات الغرق، ولا الغاية التي ينشدها توكّل من كل تلك الجرائم، ربما لم يكُن متورطًا في أغلبها من الأساس، لكنه حتمًا يعلم مَن وراءها ويتستّر عليه، وتدور الأسئلة في رأسها، ولكنها بلا إجابات.

هل يجعل ضحاياه من النساء قرابين لأعوانه وللسحرة؟

ولماذا يطبع عليهن وشم الفضيحة واللعنة بالغرق؟

هل يقتلهنّ ليخفي معهن جرائمه؟

هل يقدمهنّ رشوة للمسئولين الفسدة الذين يتسترون على أفعاله؟

أم هل هناك لعنةٌ حقيقيةٌ تصيبُ النساء فقط في قريتها وتوكّل وعصابته يستغلون اللعنة فقط لمصلحتهم؟

توقّف عقلها من زحام الأسئلة وفراغ الإجابات، ورأت ألا تُجهد نفسها في معرفة الأسباب، لا فارقَ إن كان يستخدمهن في السّحر أو الدّعارة أو خلافه، الحقيقة الوحيدة أنّهنّ غريقاتٌ لطمعه، وأنّ الترعة صارت مقبرةً جماعيةً لنساء القرية والغريبات عنها، بل إن

كل من أراد التخلص من زوجة أو بنت أو شريكة أو أيًا تكن، يلقي بها إلى الترعة في غياب الرقباء، ولا يوجه له أبدًا اتهام أو لوم، طمي القاع اختلط بالعظام ونبتت بوسطها شجرة اللعنة التي تطرح سمومًا وغيمًا يحجب الحقيقة، وتطرح أيضًا الصراخ والقهر في كل مساء، لقد طالت اللعنة ابنة خالتها إنجي التي صارت مدمنةً وفقدت براءتها على يدي يحيى مجرم القانون وأفراد عصابته، وأوشكت أن تكون قطعة لحم يقدمونها كل مساء لأحدهم، لا يجب الانتظار أكثر من ذلك، الحل يكمن في قطع رأس الأفعى، طالما أن القانون لا يملك ذلك؛ فعليها أن تطبق قانونها الخاص للانتقام مما فعلوه بإنجي ونساء القرية، هكذا قرّرت.

في الليل، لم تكُن تملك القُدرة على النوم، التفكير يترك داخلها طنينًا لا يُطاق، ذهبت لتتفقد إنجي، وجدتها تجلس إلى جوار النافذة في غرفتها، تحدّق في السماء، وتسرح بعينيها خلف نجمةٍ بعيدةٍ، ربما كانت تتألم لما آلت إليه، نادت عليها، ولما انتبهت بعد عدة مرات؛ تسرّبت إلى فراشها، ولفّت الغطاء على نفسها كشرنقةٍ، ربما جاء الصباح بجديدٍ، أو لعلها تأمل أنها تعيش في كابوسٍ سينتهي بالاستيقاظ.

النوم لا يريد زيارة جفنيها، توجّهت إلى المطبخ، وأعدّت كوبًا من الينسون، وظلت تفكّر في طريقةٍ لاستعادة ابنها إلى حضنها مرةً أخرى، لِمَ عليها أن تستسلم وتتركه لأب لا يُجيد الاحتفاظ بالأشياء الأصيلة؟ وبعد مجاهدةٍ كبيرةٍ، نامت.

في الصباح، لم تجد إنجي في البيت، لم تخبرها بالأمس أنها

ستخرج، ومع مرور الوقت، واقتراب الشمس من الزوال؛ خرجت للبحث عنها، لم تجدها عند خالتها ولا برفقة يحيى، وهاتفها قد تركته على الكومودينو، ولم تذهب إلى أيٍّ من صديقاتها، عادت إلى خالتها ثانيةً، وجدتها وقد صنعت مناحة وتبكي بحرقة على اختفاء ابنتها، شعرت سارة بالتقصير تجاهها، وأنها الوحيدة التي ستلام على اختفائها، ولم تمر دقائق حتى سقطت والدة إنجي بلا حراك، وفي المستشفى عرفت سارة أنّ خالتها أصيبت بجلطة في المُخ، وانتشر خبر اختفاء إنجي في القرية صبيحة اليوم التالي، وهو ما دعا أسما للظهور كي تقف إلى جوار سارة ومساعدتها في البحث، واتفقتا على الذهاب إلى الشرطة لتحرير محضر تتهمان فيه توكل ويحيى باختطاف إنجي، والتغرير بها، ربما تتحرك المياه الراكدة وتتكشّف الأمور.

***

ظلّت سارة طوال فترة التحقيقات تعيش كابوسًا قاتلًا أن تجد إنجي ذات صباح إحدى الغريقات، ولم توجّه النيابة تُهمة إلى توكل ويحيى في ظلّ غياب الأدلة، لكن على الأقل بقيا موضع شُبهة وأثيرت حولهما الشُكوك، وهو ما كانت تهدف إليه سارة وأسما من أجل تحجيم نشاطهما، ومع مرور الساعات الثقيلة لم تستطع سارة الصُمود أكثر من ذلك، كان بداخلها حقد تجاه توكل، توجّهت إلى الجمعية الشرعية، وانتظرته حتى يخرج لصلاة العصر كعادته، ولما خرج؛ انقضت عليه كلبوةٍ جائعةٍ، وانهالت على رأسه تدقُّه بكعب حذائها، ولم يستطع الناس أن ينتزعوه من قبضتها، لقد شعرت بقوةٍ غريبةٍ تسري في عروقها، قوة لم تكن لديها في أوقات الصحة

والفتوة، حرقة بداخلها كانت تدفعها أن تهوي على رأسه مثلما كان أبوها يعزق الأرض بفأسه، أخذ الدم ينفجر كنافورة منه، ولم تتركه إلا وهو يتمرغ على الأرض ويصرخ في الناس: «امسكوا تلك المجنونة.. سارة المجنونة.. منها لله.. حسبي الله ونعم الوكيل».

ولكن وللمفاجأة كانت الجثة الغريقة في اليوم التالي هي زوجة توكُّل التي يعشقها مما زاد من تشويش عقل سارة، فمن المُحال أن يؤذي توكل زوجته، خصوصًا عندما رأته وقد طار عقله ويبكي عند قدمي جثتها ويتصرف بشكلٍ غريبٍ عليه كله ضعف وحزن.

لم يقترب أحدٌ منه، إلا سارة، التي شاركته البكاء والنحيب وشعرت بغضبها وحنقها عليه يتلاشى ويحل مكانه تعاطفٌ متنامٍ.

في الليل لم تذهب إلى البيت، ظلت على الترعة، بعد انصراف توكل، في المكان الذي كانوا يجدون فيه جثث الغريقات، وكانت تنزل إلى الجانب الضحل حتى يصل الماء إلى وسطها، وتظل تتحدث إلى ماء الترعة كأنها تطلب منه أن يخبرها بمكان إنجي، والناس يتجمعون على الضفتين ويضربون كفًّا بكف، ويتهامسون أن سارة فقدت عقلها، ولم تفلح معها مُحاولات أسما لإخراجها من الترعة، حتى إنها همّت بالنزول إليها لولا أن سامح منعها، واكتفت بالانتظار بجوار الجسر، ومع الغروب خرجت سارة، واحتضنتها أسما ببطانية قد أحضرتها، وظلت تبكي وهي تطلب منها العودة إلى بيتها، ولكن بلا فائدة.

وفي غضون ساعات كانت كوم الديبة تتحدّث عن سارة المجنونة، التي تبيت على الجسر ولا تخشى الجان، ومع الوقت صاروا يقولون

إنها «مخاوية» لجنٌ عتيد، وأنها سبب اللعنة التي حلّت على القرية بعودتها المشئومة، وأن زوجها وولدها وأخاها هجروها لنحسها وشؤمها، وكانت أسما تسمع ذلك الكلام وتعلم أنّ مصدره - لا شك - مخاوف مريضة وجهل عظيم، ولكن لمن تقول الحقيقة؟ لن يستمع الناس إلا للخرافات والحكايا التي تحمل الإثارة بين أحرفها. ولم تجد في يدها سوى أن تحضر الطعام لها كل يوم، وتجلس معها قليلًا، تنظر إلى عينيها الساهمتين، وتبكي.

كانت سارة في كثيرٍ من الأوقات تشقُّ صمت الليل بصرخاتٍ مجنونةٍ يسمعها كل مَن في البيوت القريبة من الترعة، كانت تنظر حولها في ذهول، تتحدث إلى الفراغ كأنه زياد ابنها، تفتح ذراعيها ثم تحضن فراغًا وتصرخ، ومرةً ثانيةً كأنها ترى إنجي على الضفة الأخرى، تناديها بشجنٍ، وبعدها تصرخ بصوتٍ أعلى، حتى انتشر خبرها في القرى المجاورة، في بسنديلة، والمنشأة، وحلاوة الكبرى، لكن سارة اختفت فجأة من على جسر الترعة، حتى ظن الأهالي أنها قد هربت بعيدا.

وبعد يومين، وجدوها تسير في شوارع القرية حتى توجّهت إلى الترعة ثانية، كان وجهها أشد غلظة، وأكثر غرابةً، وظل الناس يتناقلون علاقتها بالجان، ولا بد أنه من عاونها على الهرب، وتزايدت القصص والخرافات حولها، البعض يُقسم أنه رآها تطيرُ في الليل فوق الترعة بصحبة الغوازي اليهوديات، والبعض يقول إنها تتحدث إلى مارِدٍ يعشقُها يجعلها بالصباح مجنونةً ويُعيد إليها عقلها في المساء ليأنس بها، والبعض يدّعي أنها قتلت إنجي من أجل الجان وتريد أن تدفع عنها التهمة بادعاء الجنون، حتى إنّ مسعودة قالت

عنها إنها ساحرة.

كانت تسمع بعض تلك التهامسات وهي تقفُ في وسط الترعة تتحدث إلى الماء، وكانت تخرج لهم وتسبهم وتقذفهم بالحجارة، وكان الأطفال يبادلونها التراشق بالحجارة، والبصق، والشتائم، وتعود كما في كل مساء للجلوس إلى جانب جسر الترعة، تتحدّث إلى الفراغ، وتصرخ بوحشيةٍ حتى أسما ومنة الله فقدتا القدرة على التواصل معها، كانت تنكرهما وتنظر إليهما نظرات تشي أنها قد نسيت صداقتهما وأكثر من مرّة حاولت التعدي عليهما حتى خافتا ونفرتا منها.

وفي أحد المساءات، وبينما تقف في وسط الترعة تتحدّث إلى الماء أن يعيد إنجي إن كان قد أخذها؛ شعرت بضربةٍ على مؤخرة رأسها، نظرت خلفها ولم تجد شيئًا، الظلام كان كثيفًا، وضعت يدها مكان الضربة فشعرت بسائل لزج ساخن يتدفق، وفجأة، كأنّ أيادي خرجت من الترعة وأخذت تجذبها إلى الأسفل، حتى إنها شعرت بوجهها وهو يُدفن في طمي الترعة، ولم تقاوم، ولم تحاول الانفلات.

في الصباح، كانت تطفو على سطح الترعة، مُمدّدة الذراعين، منفرجة الساقين، وعيناها تشهقان في السماء، وكان صمتٌ لا يزال من يومها يحيطُ كوم الديبة.

لا نهاية